

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال ومولير وكروموك وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مراجعة
عماد أدهم

ترجمة
محمد علي أبو درة



تونس

الجزء الثاني من المجلد الثامن

٣٢



بيروت

الكتاب الثاني

انجلترا

١٦٤٩ - ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ - ١٦٦٠

١ - الثورة الاشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول، في ٣٠ يناير ١٦٤٩، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم، في إنجلترا التي أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التي دامت سبع سنين. ونادى «البرلمان المبتور» Ruin. p - وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد «حركة تطهير برايد» (١٦٤٨) - بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول، وأن فيه الكفاية، وألقى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩)، كما ألقى الملكية، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له «مجلسا للدولة» يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم، كلهم مستقلون - أي بيوريتانيون جمهوريون. وفي ١٩ مايو أقيم مجلس العموم، بصفة رسمية، الجمهورية الإنجليزية: «ولسوف يتولى الحكم في إنجلترا منذ الآن، بوصفها جمهورية أو دولة حرة، السلطة العليا للأمة، وهم يمثلو الشعب في البرلمان، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء، تخير الشعب»^(١). ولم تكن الجمهورية ديموقراطية. لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطي، ولكن طرد الأعضاء للملكيين أثناء الحرب، والمشيخين (البرسبترين) في حركة التطهير، كان كما قال كرومول، «قد شئت البرلمان وغربله واخذه إلى مجرد حفنة من الرمال»^(٢).

إن للملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان في الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون في «البرلمان للبتور» ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذي استطاع أن يحويه من الثوار للملكيين في إنجلترا ، والثوار الكاثوليك في إيرلنده ، والثوار للشيخيين في اسكتلنده ، والثوار للمتطرفين في الجيش نفسه .

ولها جهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان في فرض الضرائب قدر ما فعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفا عن شارل ، ولكنه في معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تماثل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيمة . من أجل هذا حمد كثير من صغار النبلاء الذين طأوا الفقر والموز في إنجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرأت أرسقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لي (*) . وأعدم بعض زعماء الملكيين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جانب ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه «صورة ملكية» لمؤلفه القسيس للشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفسكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك (٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التي عرضها الكتاب هي صورة حاكم طيب القلب كان في واقع الأمر يدافع عن إنجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية ، لا بلجيزية حيث عرضت أبناء الارستقراطيين الانجليز في الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز في الشمال .

لا ترجمهم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التي أثارها كتاب ملتون «تحطيم الصور للقدسة» (١٦٤٩) في محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملاكين الذين شرعوا لغورهم في كل مقاطعة في إنجلترا يهيجون الشعور العام لاعادة أسرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق ، والاسراع في القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقدم كبير من الجيش ، يطالبون بديموقراطية شاملة بشكل ما في السكاه من معنى . كما طالب بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد مناقق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد أنه سوف يبكي ويهرخ ويبدي الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلاً (٤) » . وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يمكننا من قبل للملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب ، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ » (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفي أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي « مكبله في أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالباً بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس للمعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته ، متحدثاً ، إنها ما بالخطيئة العظمى « موجهاً ضد كرومول وأبرتون » . وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة في قضية أثار اهتمام الرأي

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى للبيرن القضاة ، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جيمهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط في دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا انقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الغزع (٦) وظل للبيرن لمدة عامين بطل الجيش . ونفى في ١٦٥٢ ثم عاد في ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣) ، ولسكنه ظل مع ذلك سجيناً . وفي ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو في الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ في البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى ازالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه للبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعاً أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعاً على حين يحتكر الأغنياء الأرض ؟ . وفي أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبي » يدعى ولیم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج في سرى . ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلجوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم سـ كما جاء في تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدم وشيكا إلى التلال للعمل فيها (٧) . « ولما سبق إفرارد للمثول أمام نقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعترضوا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضى العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها ، « وأنهم يأملون » في أن يحين لحظة الوقت الذى يأتي فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم وينضمون لجماعة الأخيار هذه (٨) . « فا كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متمسبون لا يخشى منهم أى أذى . وتابع أخدم — وهو

جيرارد ونستافلي - الحركة ببيان أصدره في ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « في البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملسكا تاما مشتركا للحيوان والإنسان ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبني جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف في الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحسكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت في حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبطغضاء ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة (٩) . وفي « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستافلي إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لا يوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من السكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويسكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا (١٠) . وتخلّى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعاتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ممالك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق في هذه المثل العليا في الملكية العامة ، بل لم يثق حتى في حق الاقتراع للبالغين . وفي فترة الفوضى التي لامعدى نغها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة في بعض الأيدي ، وقد تمثلت في كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإحلال الاقتصادي والسياسي بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أبناء الثورة المضادة التي تدبر في أيرلنده واسكتلنده ، ضمرو الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « بوتويا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثار وتنتقم .

٢ - ثورة أيرلنده

في أيرلنده وحدر رد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت في اقليم (The Pale) في شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أول أورموند جيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم في أيرلنده ، مع اتحاد الكاثوليك في كلكني Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفي مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندي مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاة وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذي اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثاني ، يدعوهم فيها للقدوم إلى أيرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله في أيرلنده في أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند في رانمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندي) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندي وافتتحها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقي حاميتها على قيد الحياة (١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين ، وقتل كل قسيس في المدينة (١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول في شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب انقلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذي يرجع إليه الفضل في هذه الرحمة حقا (١٣) » وتسمى «

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله (١٤) .
وإننا لنشاركه رجاءه المخلص في أن تضع مثل هذه الضربة الواحدة من
الإرهاب حدا للشورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام آخر ، فان كرومول تقدم من
دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، واتى ١٥٠٠ من المدافعين
عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشيء من عنابة
إلهية غير متوقعة ، في هدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا حيث
كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التي اقترفوها ضد حياة الكثيرين
من البروتستانت المساكين (١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان
مدينتي دنكانون ووترفورد تمهدتا حصار كرومول . واستسلمت كلكني
لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة في أي مكان آخر ، وتم الاستيلاء
على كلونمبل ولكن بعد فقد ألني رجل . وما أن ترمى إلى كرومول نبأ
وصول شار الثاني إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب في إيرلنده لعهده
هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنهم مات بالطاعون في ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ .
وبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن اللثوار ، وبمقتضى معاهدة
كلنكني (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم
بالمجرة دون طاق . وفي ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية في أيرلنده » ،
الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها - أيا كان
مذهبهم - ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه
الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيسكر) من
أراضى ايرلنده إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو أيرلنديين كانوا يناصرون
كرومول في ايرلنده . وبهذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدي
الإنجليز (١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو وكسفورد

لنفسك « Pate » أو إقليماً إنجليزياً جديداً في أيرلنده ، وبذلك محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الأيرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الأيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الأيرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أما كن أخرى بتهمة التشرذم .

وقدر سير وليم ريتي أنه من بين سكان أيرلنده البالغ عددهم ١٤٦٦٠٠٠ في ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٠٠٠ بسبب الحرب أو للموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الأنجليز : في بعض المقاطعات « قد يسير للمرء عشرين أو ثلاثين ميلاً دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه (١٧) » . وحرّم المذهب الكاثوليكي بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة أيرلنده في بجرع عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى إنجلترا لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التي لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك في فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صيها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك في أيرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكاثوليك جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الأيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما في بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريرة بذات أيرلنده وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ - ثورة اسكتلنדה

صعد الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذي كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزي ، وماذا إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا في «تطهير برايد» الذي أخرج المشيخيين (البرسبتريناز : كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا «لعصبة المقدسة والميثاق المقدس» الذي أقسم فيه ذلك البرلمان عمن الإخلاص لاسكتلنדה وللمذهب المشيخي ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلنדה كما فرضوه على إنجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضي أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنة شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلنده .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلنדה طلبوا إليه أن يوقع الميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ويقسم عمن الحفاظ على المذهب المشيخي أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما تروق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريددا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذلك العصر - قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلنדה ، أملا فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلنדה ، وهو يتألف على أن يكون على رأس جيش يفتزو به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

أبيه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع في ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه للمصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكاثوليكية) (١٩١) . » وللتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكدوا للجيش أنه لن يقهر ، (٢٠) لأن للملك الشاب قد أرضى السماء . وتمت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولائهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد نمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ، دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفا كس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية ، وكان قدر فرض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفاه ، فنظم قواته بمزيمته وجعلته للمهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يوليه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ما تقولون يلتئم إلتثاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ، أن تفكروا فى أمكم قد تكونون عظيمين (٢١) » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرطان ما استولى على أدبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم مسمومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone » . أما كرومول فقد إلتابه الموضع فى أدبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادته تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى إنجلترا ، أملا في أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين
والمشيخيين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره
بالمدينة الإنجليزية كل قوات الطوارئ ، والمواطنين الصالحين للجنودية ،
وفي ووتر ، في ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى المعركة التي أقيمت على
الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمتنفي مرة أخرى . وفيها ، بفضل
الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن
تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن
قائدا . أنه بذل أقصى الجهد في أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل
نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعا من معمة كرومول محاربا
لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل
إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه
اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت في مقر أحد الملكيين . وهناك تجرد من شعر
رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد
العامل ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ
إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو في الحظائر والغابات . ونام مرة في
احدى أشجار « رويال أوك » في بوسكويل ، على حين كان جنود الجمهورية
يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو
يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ،
في شعورهام في سسكس ، قاربا ارتضى ربابه ، مخاطرا بحياته ، أن يتقدم إلى
فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدي الثوار
الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هذا في فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت
اسكتلندة لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجهز لها إرسال
ثلاثين قائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بمحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، وقرار التسامح الديني مع كل الشيع البروتستانتية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة في الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب دودة أسيرة . ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

طاد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصارا يسكله التواضع . وإذ رأى الجموع التي احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على جبل المشنقة (٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنية ، وخصص له قصراً كان يوماً ملكيا في هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء في منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون التدخل في الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة . أو حرية الوعظ ، بأى شئ يمكن صفو الحكومة أو يسى إلى كرامتها (٢٣) » . وحرم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثاى ممتلكات من يمتنعون المذهب الكاثوليكي ، بصفة غرامة . وقدمت الجرائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك (٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه في اتخاذ قرار ، كان حازماً متأهباً لسرعة التصرف إذا اعتزم أمراً . وقد احتل في صبر نافذ المناقشات التي أفسدت السياسة في البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن العجلة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه
الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هو ايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه
عليها (٢٥) . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور
كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع
حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ،
وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة
فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض
كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبت حتى تحدث فى عنف ،
فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليغاركية (أقلية حاكمة) تتخذ نفسها
بنفسها ، لاتصلح لحكم إنجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى
عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم
برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . وسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » .
ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » .
ودخل الجنود إلى القاعة . وأمرم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء
محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شئ » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ،
وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار » غير مؤث إلا (٢٦) » .
ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ،
وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ،
ولا يزعجنكم أحد - أما إذا كنتم تجتمعون كجلس للدولة ، فلا مسكان
لكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل (٢٧) » . وهكذا كانت
كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر
بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور
إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى
لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجازاً إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تدمير ظاهر لحله (٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجيع المسكينون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاويه العسكريين أن يختاروا - بصفة أساسية من الجامعات البيوريتانية فى إنجلترا - ١٤٠ رجلاً ، من بينهم خمسة من اسكتلنده وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتبول فى ٤ يوليه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدؤون فترة يحكم فيها القديسون حكماً صحيحاً تحت رياسة يسوع المسيح (٢٩) ، وإقتراح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد - وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأساً وعجزاً ، فى موضوعات الدين والتسامح الدينى . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سائفة الذكر .

وضاق الجيش ذرعاً بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعاً بمن طردهم فى أيريل . وعرض الضباط - وهم يمثلون دور أنطونيوس - على كرومول لأن ينصب نفسه ملكاً ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، بإيحاء محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترح على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامي

جمهورية إنجلترا واسكتلنده وايرلنده ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملاكين والسكائوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية في يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لمدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجلىزى مسطور (٣٠) » ، وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبداً؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى المهوبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكاً ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة (٣١) . ويبدو أنه كان مخلصاً حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن القوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثم رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه « بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق (٣٢) » . وأرسل كرومول بمض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئاً فشيئاً إلى المزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهمل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتبول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية (٣٣) . ولكن مما لا ريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطبعا قويا في نفس السمرات ، ويشير الفزع في نفوس الأهالي .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، تترمد فرقا على حياته لكل طلاقة نسمها ، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إلى أتوك قلبي معك (٣٤) » . أنه هو نفسه ، في أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التي قيل أنها حديدية . أن حملات إيرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور لى في ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر لى ، بودى أن تستغل كل ما أوتيت من مهارة في رسم صورة حقيقية مثل شخصي تماما ، ولا تتملقني على الإطلاق ، بل يجب أن تبرزهذة الخشونة والبثور والنتواءات وكل شيء ، وإلا ، فلن أنقذك فلسا واحدا (٣٥) » . وقبض لى أجره ، ورسم « حامى الحمى » في صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوي ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الانفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الكثيية في لباسه العاذى - سترة ويزدة بسيطتان سوداوان - ، ولكنه كان في المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتكلف أو التظاهر ، ولكن في حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان الخسلية والدهاية والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طاريء (٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا (٣٧). وواضح أنه كان ، حسب ما يبديه ، مخلصا في ورعه وتقواه (٣٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان نمة بعض الرياء في تقواه العلنية ، وقليل منه في تقواه الخاصة ، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع في أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن . . ولم تكن أخلاقيات الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رأهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذياً ، لوثيقة الحكومة ، التي أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . وعلى الرغم من كل مساعي حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة ، ضم مجلس العموم الذى اجتمع في ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين . وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أو البرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ ظهر برايد البرلمان في ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفي صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجنود يرأسها ضابط برتبة لواء وللواء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النقد والتمرد ، وسمعت أصوات تمادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع في أعمال التجسس

والإعتقالات التمسفية وإجراءات قاعة النجم التي أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vano » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول في حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق ما فرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده في ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٥٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحا ، ولكن يشتهر في أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبهادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبهم التي عدوا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات العكسية ليستر قتمام الحقيقة الواقعة ومرارتها (٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا إتحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفي ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنتقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة بتواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشمر رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق في تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفي يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم في مجلس العموم . وفي نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقا مع الجمهوريين في مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرده البرلمان (في فبراير ١٦٥٧) . وأبذلك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكان التاريخ

بهذا قد ضرب مثلاً جديداً للتعاقب التمسكى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تماقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية (٤١) .

٥ - ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بإلغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصاحب مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبترىان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية - نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد طمانين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدأ لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شئ تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسة والحصول على رواتب . ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبترىانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة - وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأجليكانيون . الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من رواتبهم ، وابتأوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أما كن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية (٤٢) . وكانت الكاثوليكية لا تزال خروجاً على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفي ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين ، بموافقة كرومول ، قانوناً يقضى بمصادرة ثلثي ممتلكات أي فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويرأ منها (٤٣) . وفي ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعي طبقي : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبية فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوي الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التي لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الديني رأساً على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين أنتمت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا في المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الديني والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما ارتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أي تقديوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية (٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتعاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة في لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديده العماد بأنه « وحش سقر الرؤيا » (النبي الكذاب) ، ولكنه احتمل هجومهما مائرا (٤٥) .

واستخدم نفوذه في وقف اضطهاد الهيجونوت في فرنسا وأتباع والدوني بيد موت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، في مقابل ذلك ، بمزيد في التسامح مع الكاثوليك في إنجلترا ، تذرع بمعجزة عن الحد من حماسة البيوريتانيين (٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل في الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود في كل شيء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب للقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل في الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقا وفي كل مكان . وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب للقدس ومجازاته . وأشرق في عقولهم التفكير في الله وفي المسيح أو تجلياتها لهم ، وملاهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط في السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والكتابة ، وخلت من أية زينة أوزخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدفن واللذة الحسية . وكانت المسارح قد أغلقت في ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدبة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتاني نيو سن قتل كل الدبة في لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن (٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشربة والهور وتقام في أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ما عدا في التراتيل الدينيه .

وقضوا على الفن في الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر لبي ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحيه الزواج المدني ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا لاسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقباً ، وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامة لأنه قال : « الله شهيد على (٤٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت لثأراً كد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحاً بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الديويوه محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظوراً « التسكع أو المشى الدنس بلا هدف (٤٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسياً متمزماً حتى أيامنا هذه .

أن كثيراً من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل الطبيعه البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يفترقون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائماً تروهم الكآبة ويخرجون أصواتاً من أنوفهم وتلساب من أفواههم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عدداً كبيراً من البيوريتانيين التزموا بأحجيلهم فى إخلاص وشجاعة . وسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلي على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة .

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفرع من نارجهم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت في البيت الكآبة والظلمه ، فإن حياة الأسرة عند طامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإحلال الذي تميزت به صفوة المجتمع في عهد شارل الثاني .

وجملة القول أن النظام البيوريتاني ربما أحدث أصلاحا خلقيا جددته ودعمته حركة المنهجية في القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح ديني قادها تشارلز وجون ويزلي في أ كسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترا) - وإليه يرجع أكبر الفضل في الأخلاقيات العالية نسبيا التي تتميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ - الكويكرز

تألفت في الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجريح والتمصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قوين جداً فبهم إلى حديصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلي ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقترح الإجماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر في النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه في يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته في معظم الناس إن لم يكن كلهم وهي هزات وحركات ، تنتهي بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأناث ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أي المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية في بدايه الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى ١٦٥٠ (٥١) » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا : مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى ما لا نهاية . إنهم تقبلوا المبادئ الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحي الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريعها . أن إدراك هذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويسكرز . وإذا نهج الإنسان سبيل ذلك « النور » لم تمد به حاجة إلى واعظ أو كنييسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دمجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن التوبة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساخين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاة (١٦٩١) . وفى سنه الأولى حيرته وأقضت مضجعه للمغربات غراح يلتمس النصيح وللشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترايم

الدينية (٥٢). وقد جورج ثقته بالقساوسة، ولكنه وجد السلوى والعزاء.
حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لأخذ مكانى فى احدى
الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ما سرت
فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أعمال
الله الأولى فى نفسى ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ،
وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم
الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون
الكتب (٥٣) .

وسرطان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور
الباطن ويمظهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لسترشير « حل الله عقدة
لسانى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله (٥٤) »
« وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا
ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها إيماءات وإلهامات وتنبؤات
عظيمة (٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى
سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم (٥٦) . أى أن
جورج قر الآن عينا بما وقر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله
قبل الخليقة ، لتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه
مساو لأى إنسان . ومنه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع
قبعتى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أبها الرجال
والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير (٥٧) » .

وإذا اقتنع بأن الدين الحق لا يوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير،
فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعدة صانحا بأن الاختبار
الحق ليس فى الأشعار للقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى،

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول الممتنعين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاً ١٠ التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للسكان والناس ، ولكنهم انهملوا على » في غضب شديد وطرحوني على الأرض . وضربوني ضرباً مبرحاً وأذوني ايذاء شديداً بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصبيهم « فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالي قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة (٥٨) . وفي دربي تحدث مهاجماً الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة في الإصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجانوه معتقلاً قذراً كربه الرأفة غائراً في الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام (٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضاً على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشتقة .

وبعد عام قضاء في السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفي ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفي بفرلي دخل كنيسة ، وجلس منصتاً حتى انتهت للوعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالوجل « حين يتقاضى ثلاثمائة جنيه سنوياً ليبشر بالأسفار المقدسة (٦٠) ؟ » وفي بلدة أخرى دعاء القسيس لالقاء عظة في الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث في فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنني لم أحضر لأعترض سبيل مما يخدم الوثنية ولا قساوسهم . ولا عقورهم . ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنني أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أي مكان آخر لذلك فصحت الناس أن ينهدوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله واعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفي سوورثمور في يور كثير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضى توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعة سوورثمور ، أول مركز أساسى لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب وليس علينا أن نتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه فجة غير فاضحة ولكنه عوض بما تذرعه به من صبر وجلد في ملاقة سلسلة الاعتقالات والصدقات العنيفة ، وهاجسه البيوريتانيون والمشيخيون والأنجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن المحين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويكفى القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودى (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثمانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساءة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . في ١٦٥٧ أصدر (حامى الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن ياملوا هؤلاء الوطاط الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشدده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلز الذى بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو للمسيح مجسدا من جديد ، وأنبه فوكس على هذا ولما سكن بعض أتباعه المخلصين الفيورين عبده ، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ؛ وعندما ركب نايلز إلى بريستول ، أُلقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس ، مقدس رب
القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو
الدعاوى التي نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت »
وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر
(١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار
بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحمل وسط إنسانى
حكّم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ،
ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى
الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد الحى ، واحتمل هذه
الفظائع بشجاعة . وحياء أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها
واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ،
وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه
فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٢) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير
المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن
يظلموا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنييسة أو القصر
أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير
الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتسكريم . ونبذوا الأسماء
الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال :
« اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين
الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين
يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروج الجميع
بعد ذلك فى صمت رهيب يتكلمه الجلال والوقار ، وكأنا هذا الصمت عقار
مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساطيرهم
عندهم « إحساس بروح خيرة فى أعماقهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحدث من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى إنجلترا ستين ألف « صاحب » إن ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من للراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ - الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول . وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للمصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على « ركب إنجليزية » — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتميزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرطان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطاً فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستمرت حمى الإمبريالية بنحو البحرية . وأوحت ذكرى هوكنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بامسكان كمبر شوكة الأسباب وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء إنجلترا على تجارة الرقيق الراجعة وتوجيه الممادى النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فإن غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (٦٥) .

وفي • أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفي ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولا بقيادة بليك . وفي ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امره وليم بن (والد أحد أعضاء الكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (احدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولكن بن استولى على جايبك لانجلترا (١٦٥٥) .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفا انجليزيا فرنسيا ضد أسبانيا . إن الحرب التي كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستغاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل في شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم في انجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحا رائعا ، وإن كان طارا . وترى بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه في ميناء سانتا كروز في جزر كانارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة في هزيمة الجيش الأسباني في معركة تلال الدونز (بالقرب من دنسكرك) في ٤ يونيو ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنسكرك لانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان ماري تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فكر في أن يضفي على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمسك حكمها وسلطانها في آسيا . ونظرت أوروبا كلها بعين الفزع إلى البيوريتاني الذي كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة ، والذي أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التي تعلموها

التيجان ، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتبس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون نورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة في الصمود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة إنجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى بقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن في ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة في البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضى الوطیئة وفرانش كونتيه والورين . وكمن من رجل إنجليزي كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العبدوانية .

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد في ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروطا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيهه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في خمس شئونها (٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد إنجلترا وفي سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني . وباعت معظم أراضى التاج وأراضى الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من المملكين ، ونصف أراضى أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوى ٤٥٠ ألف جنيهه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادى إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة السكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذى قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانونى ، والمحاکمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازطاجا وظلما عن ذى قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد (٦٢) .

وكانت انجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياه ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذرہ ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٥ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسي Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات في السجن . وفي شهر مايو نشر مكسي كتيباً بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسي ومات هو أيضا في السجن . ودبرت المؤامرات في الجيش وفي دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنوني في عودة أسرة ستوارث إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتيوود المبادئ الجهمورية ، ونمت على والدها دكتاتوريته (٦٨) .

وحطمت المموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي . إنه مثل كثير من بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم كان من مالكي الأرض في الريف . « إنى أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنى عشت في ظل تعريشة ورعيت قطيعا من الغنم ، لكان خيرا من أن أتولى حكومة مثل هذه (٦٩) ، وفي أغسطس ١٦٥٨ ماتت الزبابت أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين في شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوروبا (٧٠) . وبدا أن كرومول أبل من مرضه ، وتحمدت في جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلا : « لا تظنى أنى سأطرق الحياة ، أنى واثق من عكس هذا (٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يمين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أمي ابنه الأكبر . وفي الثاني من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياہ ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالي طارق الحياة . وكتب السكرتير نورلوه : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودهواتهم (٧٢) » . ولما وصلت أبناء موت كرومول إلى أمستردام « أضيفت للمدينة أيما اضاءة ، وكأنما نطلقت من عقابها ، ومضى الأطفال في القنوات هاتقين متهللين فرحا لموت الشيطان (٧٣) .

٨ - طريق العودة

١٦٥٨ - ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به انجلترا في الأغلال التي صنمعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة العقل مما جعلهما ينظران في فزع خفي إلى سياسة الدم والحديد التي انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، طاش في هدوء وسلام في الريف على الضيقة التي حصل عليها بالزواج . ولم يسكن به من طموح في أن يصبح في ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى الحمي » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تسكن تليق له العظمة (٧٤) » .

وأفلتت الآن ، في جراءة أكثر ، كل العناصر التي كان أوليها قد كبح جراحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذي كره فيه خلفيته المدنية ، والذي رغب في أن يحتفظ بالسلطة التي كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش إلتبس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع في ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيفوارث إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبهم زسرمين الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون في الجيش بترميم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التي كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجيء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين في الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد في وستمنستر في مايو ١٦٥٩ . ولكن ريتشارد الذي لقي من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان في ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفي ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش في عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى إنجلترا في ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته في ١٧١٢ وهو في السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملكيين في ٣ يونيو ١٦٥٩ يقول : « أن القوضى كانت تعتبر كجالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة (١٥) ، واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة في اسكتلنده وإيرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكي قوى في البرلمان الذي كانت غالبية من الجمهوريين . وفي ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرده البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تعاقب الأحداث التي بدأت بحركة برايد في التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون عن « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأفعال خزيا وطارا ٠٠٠٠ إلى لأخشى أن أكون واحدا في مجتمع همجي متبربر ٠٠٠ والافكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التي أقامته ، على هذا النحو (٢٦) «ولسكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة في بريطانيا ، التي كان في مقدورها أن تقف في وجه الدكتاتورية العسكرية هي جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندي الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته في اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعترام مونك تمحدي الجيش في لندن ومقاومة اغتصابه السلطة . فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة انيسيف التي كبلتها في أغلال العبودية التي لا تحتل . » وأثار بيانه الحماسة والحمية في عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكري . ورفض الأهالي دفع الضرائب وأعلن الجيش في أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المعتصمين القروض التي اعتمدوا عليها في دفع الرواتب للجنود . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن القوضي التي تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية في انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسي أو الاقتصادي دون ملك ، تهديء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفير الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفي ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المعتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهوري . وكان من أول القرارات التي اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين وعمن ينضمون إليهم في المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلي عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق ، على أساس أنهم يجبذون عودة شسارل الثاني . وازدري الناس هذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل إنجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقي به في النيران الكثيرة المشتعلة في الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ في شارع واحد في لندن . وأما الجنرال مونك الذي كان جيشه قد وصل إلى لندن في ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أُنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه في موعدفايته ٦ مايو ، فإنه — أي مونك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء للمشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم للوسع (ازداد عددهم) إقرار مذهب المشيخية (البرسبترياز) في إنجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفي اليوم نفسه محا أحد العمال ؛ أو لطح بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التي كانت الجمهورية قد علقها في « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثاني » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان في المكان يهتفون بأصوات مدوية (٧٨) . وفي اليوم التالي التقى مونك سرا برسول شارل ، سيرجون جرينفل ، الذي أسرع في الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذي العرش .

٩ - ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شارل الثاني إنجلترا في ١٦٥٠ هاربا لاقى في هربه عنقا ومشتقة ، طاش متشرداً قلقاً في القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماري في باريس ، والسكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها . وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت في أشد العوز ، طالة على الإطانات ، حتى أن مستشاره الخاص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة في اليوم . أما شارل نفسه الذي لم يكن لديه ما يسد الرمق في البيت ، فكان يتناول الطعام في الحانات في معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه .

وتعلم في أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا أن أعرق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما في ضمه إلى الكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الإنجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً في تذكيره ، حتى لا ينسى ، ما فعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعده بمبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لكلا الجانبين في لطف وكياسة ، ولكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الكنيسة الأنجليكانية الذي قاسى أبوه من أجله ما قاسى (٦٩) ، وربما نزع به الجدل الذي حاصروه به ، إلى الشك في الدين كله . ولكن يبدو أن العبادة الكاثوليكية التي رآها حوله في فرنسا ، كان لها أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوماً في حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يده لانهاز إلى الكنيسة الكاثوليكية (٨٠) وفي ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعده بأنه لو عاد إلى عرش إنجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التي صدرت ضد الكاثوليك . ولم يجب البابا بشيء . ولكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن التمايكن لا يمكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) .

وعندما شرع مازاران في التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار في صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك في ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو تام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبتت الملك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفي نفس الوقت ، حيث أن اتجملترا مازالت في حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضي الوطنية الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدان في إقليم برامانت الهولندي ، وهناك في ١٤ ابريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات لمجلس عموم ذى أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صفار النبلاء مقاعدهم في مجلس اللوردات الجديد وفي أول مايو تليت في المجلسين كليهما الرسائل التي حملها جرينفيل من شارل وفي « إعلان بريدان » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنىهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعده « بالأزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته بخلاف في الرأي في أمور العقيدة ، وألا يعسكر صفوا الأمن في المملكة » . ثم أضاف بياناً حكيماً أعدده المستشار هايد :

أنا تؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوي من دستور المملكة ، ضروري لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس نعمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معترين بما أثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحماتها ، قدرا اعتزازها واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وألوم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفي ٨ مايو نادى بشارل الثاني ملسكا على إنجلترا ،
مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند في ذلك إلى أي قرار برلماني ،
بل إلى حق المولد الوراثي . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفا من الجنيهات إلى
شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت إنجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف ،
بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس في طول البلاد
وعرضها . وفي لندن جثا الناس في الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) .
وهلكت كل الرؤوس المتوجبة في أوروبا لانتصار الشرعية ، حتى للمقاطعات
المتحدة ، وهي جمهورية بشكل قوي ، كرمت شارل طرال رحلته من ريدا
إلى لاهاي ، وقدمت له الجمعية التشريعية التي كانت قد تجاهلته حتى الآن ،
مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة في المستقبل . وجاء
إلى لاهاي أسطول انجليزي توفرف عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى
من « الملك شارل » وحمله إلى إنجلترا في ٢٣ مايو .

وفي ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطئ عشرون
ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطئ سجد الجميع ، كما
سجد الملك عندما وطئت قدماه الأرض ، شيكرا لله . وكتب فولتير :
« أنبأني العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » .
وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق
الذي احتشدت فيه الجوع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شارل
ومرافقوه ، تبعمهم مئات الناس ، إلى كنتربري ، ثم روشستر ومنها إلى
لندن . وهناك خرج (١٢٠) ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذي حارب ضده ،
انضم الآن إلى قوات مونك ، في هذا المرض . وانتظره أعضاء مجلسي

البرلمان في قصر هو يتحول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك
المهيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند
لها ، في تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلفات ٠٠٠٠ واستعادة
شرف هذه الأمم المنهار ^(٨٤) . » وتقبل شارل كل هذه التحية والإطراء
في لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شيء من الراحة بعد أن
أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لا بد أنه كان من الخطأ أني لم
أحضر من قبل ، فإنني لم ألتق اليوم بفردي واحد لم يحتج بأنه كان دوما
راغباً في عودتي ^(٨٥) . »

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ - ١٦٧٤

١ - جون بنيان : ١٦٢٨ - ١٦٨٨

في غمرة التعمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوي . وكان في انجيل الملك جيمس الأول (أي الذي ترجم إلى الإنجليزية في عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدأ كل شيء فجا عداه ، تقريبا ، تافها أو خبثا آتيا . وفي ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس في الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم ومايمانه (١) » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه في ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه (*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفي العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالي Compleat Angler كشف فيه عما في الماء من أسماك ، وحتى في أيامنا هذه التي نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نحمد هذا الكتاب ممتعا في بساطته وعضوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بشورة لا تقبل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا في هدوء إلى القنوات في الريف ليصيدوا ويوقعوا في شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) للكتابات الأولى والثانية ١٦٥٢ ، والثالث ١٦٦٣ . واكمل بيير هوتيه-الترجمة في ١٧٠٨ .

أحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هذه السحابة ماءها على الأرض التي تنبت الزرع (٢) .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر في الحكومات من يوم مولده في ١٦٢١ إلى يوم وفاته في ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده في قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك الفتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت يأمر مبتذل أو ذنى ، في هذا المنظر المشهود ، يل تفحص بعصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة في حنق بذىء لتدافع عن حقه اليأس ، ولكنه حتى رأسه الوسيم ، وكأ أنه يحنيه على الفراش (٣) .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون في وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا في برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما في ظل الملكية العائدة ، واستنكر مبادئها وفسادها وعجزها ، في قصائد هجاء أحجم في حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها في ذلك مثل ملاحم ملتون ، بمد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا في ظل النظام البيوريتانى . وهو يقول : « كان منبى وضيمًا حقيرا ، وكان بيت أنى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات بمن حولنا (٤) » . وكان أبوه (مكمريا) يصلح القدور والغلايات في قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفي لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويسكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفي القرية اشتغل صبيا لوالده الذي لقمه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب في أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب ، والتجديف في الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل في هذه الألفين » (٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجمعة في إحسدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، في سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أنزعج أعمال الرذيلة والشر والنسوق (٦) » ، ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانيين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الديني ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره في الموت وفي يوم الحساب وفي الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض نحمته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهي ، أسألك الرحمة بي ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسي ليوم الحساب (٧) » .

وفي سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا في الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندي « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وازداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثي بالخلاص (٨) » . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التي لا تنفأ ترددها عن تقي أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه في الحانوت ، فإنه استطاع أن يعولها « بالسكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتحلى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هي لغة بنيان نفسه . وتحديث قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجي .

ولكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن
رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب
في أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم .
وأزعجه تفكيره في أن معتقداته للمسيحية كانت مجرد حدث جغرافي .
وتساءل فيما بينه وبين نفسه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب
مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيهما
لهم ، كما يجب أن تثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحي
في بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ٠٠٠ ونارت في
نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد
حقاً إله أو مسيح ؟ » وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصة
بارعة أكثر منها كلمة الله للمقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هذه
الشكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الكلب والضفدعة
وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما في نخالة أفضل من حالى بكثير . . . لأنهما
ليس لهما نفس تروح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن
تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوماً في طريقه إلى الريف مستغرقاً في التأمل في شروى قابه
تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢)

» وقويت في ذهنه فكرة أن للمسيح مات من أجله ومن أجل
الآخرين » ، حتى كنت مستعداً أن أغرق في نشوة . . . من الجبور والهدوء
الحقيقيين (١٣) . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) في بدفورد ،
وعمد ، وقضى طامناً في حياة تسودها السعادة والهدوء الروحانيين ، وفى
١٦٥٥ انتقل إلى بدفورد وعين شماساً فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كاف
بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوتر : ما لم يؤمن للرم إيماناً راسخاً بأنه
قد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت للمسيح بن الله ،

فإنه لا بد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون في نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هي وحدها التي يمكن أن تعدل جسامه خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلحق الأطفال هذا الأمر في وضوح تام : —

في اعتقادي أن الناس يسلكون طريقاً خاطئاً في تعليم أبنائهم العبادة وبيدولي أنه من الأفضل أن ينبيء الناس أطفالهم ، في وقت مبكر ، وقبل قوات الألوان ، أية مخلوقات بغیضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهر ونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة في تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلي هو الذي يهيء المعرفة والخلوص . وفي ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعي ، قاطع طريق ، زان ساحر (١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذي صدر في عهد اليزابث والذي قضى بحضور كل الإنجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص في بدفورد ، وإلتقى بجمهور المصلين في أما كن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بالأيعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثني عشر عاماً ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد في أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع في الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبثاً ثقيلاً ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملاً . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدير أمر بيها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سراً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤى سفر الرؤيا ، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعياً للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحبيبيج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهأة وتسايه لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في صيغة وهم أو

خيال جامع .

« بينما كنت أضرب في فيافي هذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت نمة « خلوة » فتمددت في هذا المكان لأنام ، وإذ غلبني النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) . »

إن كريستيان استبد به في هذه الرؤيا . التفكير في أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنسة . فميجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويأخذ به « للموحي بالأمل Hopaful » الذي يعبر عن العقيدة البيوريتانية في إحكام بارع :

كنت يوما في حزن شديد ، أحسب أنه أشد ما لقيت في حياتي . وتنتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آلامي وفظاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفكر في شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإني نجاة ، وأنا غارق في التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آه من يسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) . » ولكني أحبته : إني خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتي تتسع لك » ... وهنا غمرني الفرح (٢٠) وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجاج إلى « المدينة السماوية » فنندرك هذا الذي كانوا يأملون فيه في حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم حالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتميجان وأعطاهم إياها - القيثارات - لترتيل آيات المدح والثناء والتميجان رمز للتسكريم والتشريف ، وانظر ، ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تملو رؤوسهم التيجان ويسكون بأغصان الغار في أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل المسكين » الذي تبعمهم ، متمثرا في عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتي إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقي به في الجحيم (٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نمطف أحيانا على « العنيد » الذي يقول عن المسيحي ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى من يستطيعون تحكيم عقولهم (٢٣) » .

أن فسكرة حجج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية في العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب (٢٤) . وجر النسيان ذبوله الآن عليها في صمرة النجاح الخارق الذي لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة في المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتنى في كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سلخ) التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفي القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتاني وجود ، ولم يعد هناك إيمان بما جاء في الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لا يزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ في عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانيين في إنجلترا . وأبدى إعجاباه بشارل الثاني . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع إنجلترا وحماتها ضد البابا (٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثاني اعتناقه الكاثوليكية وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوتر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط إنجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان حرلعا بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد . فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبلاته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبيل منها قط . وورى التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره .

الشاعر الشاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جدملتون كاثوليكيًا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيهًا لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرّم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبًا صوميا في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية . وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لسكى يجيد الكتابة ، لا بد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية . أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم . أما أخوه الأصغر فأصبح ملكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارث ، وواحدًا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريا بيوربتانيا من أنصار كرومول . وكان البيت في « برد ستريت » مؤسسة بيوربتانية تقيّة مخلصّة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالذوق إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

واشترى جون الأكبر عقارا ، وأثرى ، واستخدم معلمين (بيوريتانين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله في سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آثر عليه سبنسر . وأنا لا أخفظ ، طبرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دى بارتاس (١٥٧٨) ، وهو عبارة عن ملحمة تصف خالق الدنيا في سبعة أيام :

كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى في الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبي للاطلاع ، ولم يعوق تقدمى في التحصيل (٢٦) .

وفي سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كوليدج في كمبردج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدى . وأحس صمويل جونسون « بالهزل حين أروى ما أخشى أن يسكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعة . تين كليهما » (٢٧) . وطرده لمدة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفي ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ما حاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مكمونه لعظامه .
المكرمة ، أو لإخفاء رفاقه المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟
أيها العزيز الذى لا يغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سايل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان (*) .

وقضى ملتون في كبردج ثمان سنوات ، وحصل على درجة البكالوريوس في ١٦٢٨ ، والماجستير في ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع الممهود في المتخرجين بحضور يوم السكوية التي تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط في سلك الخدمة الكهنوتية . ولكن الشاب المغرور أبي أن يقسم بيمين الولاء للمذهب الأنجليكاني وطقوسه الدينية : -

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة - بمعنى أن الذي يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذي لو لم يلتزم به إلزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث في يمينه أو يرأى في إيمانه - فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البريء أمام الوظيفة المقدسة ، ووظيفة الكلام والوعظ ، التي تشتري بالمبودية والقسم الكاذب (٢٩) .

وأوى ملتون إلى بيت والده الريفي في هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الانفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته ، القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أننى عليها كاردينال كاثوليكي . وسرطان ماجمل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول رن صدها في أنحاء أوروبا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فإنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، واسكنه كان يكتب في لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه في هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة في الريف الإنجليزي ، كتب القطع المزدوجة ، التي خلدت ذكرى الابتهاج الخلى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اهدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التي تلتخ ذكرى هذا الملك اعترازه وواحه بشكبير (٢٨) .

ألمهم ، ونوبات الكآبة في شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هي « الإبنة الجميلة . للمتلهة الجسم ، المرححة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العليلية وهي تداعب أورورا الفجر » أن كل شيء في مشهد الربف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال في مشيته أمام دجاجاته ، السكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « في أشعة وضاءة في لون الكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) : بائعة اللبن التي تغنى والقطعان التي تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو في المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر العذب القوي الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التي تقيد روح التألف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هذه المباحج كلها ، فإنى أود أن أحياء معك .

وحتى الآن لم يكن نمة بيوريتانى متجههم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مغمم بالصحة يجرى في عروقه بعض دم شعراء عصر الزايت . ولكن طراً بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجد في الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبها قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك . أو يجلس وحيداً إلى جانب المدفأة :

حيث الجرات المتوهجة في الغرفة تعلم الضوء كيف يسكتسى بالظلمة بعيداً عن أى مصدر للاهتمام والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه تابع « في برج طال بمنزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلمب
صنمحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذي تخلى عن
قصره في زاوية من جسده .

أوهو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه
الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعجج بالجهد والجد فى العمل
والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ
وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى
أصوات طالية وترنجات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ،
وأبرزت كل السموات أمام ناظرى .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت
مرتبطة بالكتابة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكتابة . فى هاتين
القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ،
شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولايجد حرجا فى
المسرات والمذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى
نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتمد بين جوانحه .

وحانت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف
بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل
رد جووتر رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية .
أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء
إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراه سير هنرى وتون
قائلا : فى أغانيك وقصائدك رفة دورية (نسبة إلى الدورين الذين غزوا
بلاد الأغر يق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم (٣٠)

« وكان عنوان القطعة في الأصل » مسرحية في قصر لدلو (في شروباشير) ،
أما اليوم فهي تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان
من صغار النبلاء مع شقيقتيهما ، وكانت فتاة في ربيعها السابع عشر ، من
وصيقات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا
مرسلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالفن العاطفي
المريح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر في شعر ملتون .
فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فاتنة ، تتجول
في الغابات على غير هدى ، وهي تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسها من
تحت برائن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كوهس » ويقراً عليها تعويذة حتى تتخلى عن
عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتدافع
الفتاة ، في فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « الفلاسفة السماوية » ،
وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشهومة ،
أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدي بهذا الجمع الحاشد
المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة
العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذي تنعم به الآن .
فئة قليلة في إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا طابعا
في أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اخترت الطبيعة مثقال ذرة .
هذه الخيرات (٣١) .

وفي ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صنو حياته بغرق صديقه الشاب
ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون في كتاب تذكاري عن كنج ،
بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة في شكل رعوى مصطنع
محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التي لاتزال تباح فيهم
الذكري الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، في النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحترقة ، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة في ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريبلاس في الظل ، أو يعبث بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هي الحافز الذى يثير الروح الصافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه . ولكن حين تأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنة الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون إنجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأسرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، وألتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات للمثقفين وأحبهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم طاد إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجما إلى لندن سرورا بجنيف وليون . وياريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

واكتب ردًا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه في كل تلك
الأمكان التي لا تلتقي فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب
في أقل خجل وأيسره ، لم أجد أنا قط عن جادة التفضيلة والنزاهة (٣٢) » .
ويتذكر كيف امتدح النقاد الإيطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ما ذكره هؤلاء النقاد الإيطاليون
أو يقول نهر من أصدقائي هنا في بلدي ، كما استمع بنفس القوة إلى استحضات
داخلي بنمو بين جوانحي كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على
الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى في هذه الحياة) بالإضافة إلى الميل الطبيعي ،
بهذا كله يمكن أن أخلق شيئًا مكتوبًا للأجيال القادمة ، قد لا يرتضون أن
يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن) : (٣٣) .

وبدأ ملتون الآن يخطط للمهمة تخلص ذكر وطنه وعتيدته . وتخلصه
على مر القرون . وكان لزامًا أن تمضي الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من
البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتي
نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨ - ١٦٦٨) ،
لعب دورًا في الثورة الكبرى ، وسخر قلبه للحرب والنشر .

٣ — المصلح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

في ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنًا لرجل أعزب في « سانت بريد تشير
شيارد » في لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة
انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددًا
آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة أوام وعلمهم ،
وحصل من ذلك على دخل متواضع يسكل به المبلغ الذي خصصه له والده .
وفي كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراءه في التعليم .
فألقى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو
الذي يمد الإنسان لينهض ، بحق ومهارة ورحابة صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، في السلم والحرب ، سواء بسواء^(٣٤) ، وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم في نفس التلميذ ، « ويصلح ما أفسده آباؤنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية في الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القويم الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدينة الحالية . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس في الذهن الناشئ إيمانا قويا بالله واحد بصير ، وأن نعوذه على ضبط النفس وفقا لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الترح ، الخضوع دون تدمير لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحثذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلنا أجاز لنفسه يوما « اللهم والمتعة^(٣٥) وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتي لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط رومه ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبر نيكس نفسه كان له سلفه الأغربقى في شخص أريستارخوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة في العلوم والتاريخ ، لحتى ببعض النماذج الحية في الفنون العملية ، وكان يأمل في أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدلين ومهندسين ومماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة في هذه المجالات^(٣٦) وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد في جماعات على سهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا ويلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج إنجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملاً في مدرسة ملتون ، وربما كان في حينه الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئاً من غيرته وجدده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أنطونين وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التثام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول في حياته ، بل يكاد يكون تحولاً عنيفاً غير طبيعي عن الشعر والتعاليم إلى السياسة والاصلاح . وفي ١١ اديسمبر قدم حزب « الجندر والفرع » البيوريتاني الذي انتسب إليه بعض أصدقائه . قدم إلى البرلمان عريضة صارخة متهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقضاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا في البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقفى بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ٠٠٠ حتى العصر الحاضر (٢٨) » فاستل خمسة من السكينة للشيخيين أقلامهم في « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأساقفة الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على المنابر وفي الصحف وفي البرلمان ، وانضم ملتون إلى المعارضة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح يس نظام الكنيسة في إنجلترا (يونيو ١٦٤١) .

وفي عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كالامى ، توماس بنج ، ماتيو نيكومن ، جوايه سرستو .

بواحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس
الغارقة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة مجرد أنها علامة خطيرة
للإنزلاق نحو رومه ، والتي لا تستخدم إلا كجرد مسرحية تعرض أبهة
الأساقفة (٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية
في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدم
له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازعه جيمس الأول وشارل الأول
من أن الأساقفة ضرورة لازمة لحكومة الكنيسة وللنظام للملكية .
وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام
الأسقي ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهى : أول عنايتك لـكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها
الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجة التي نقرهن وتفكر طويلا
لثنتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سعلت على كرمك ، وتركت
بصمات حوافرها للندسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خطاهم
اللعيينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح
الحارس ويطلق الجراد والمقارب الفتاكة ، لتحتويننا في غلام جهنم الدامس ،
حيث لن تشرق علينا بدمه شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر
البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير في الصباح (٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية في الجحيم :
ولكن أولئك الذين يتوقفون إلى مناصب الحكم الرفيعه والارتقاء
هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقة والانتقاص منها ، وعلى
حساب كروب بدم واستعباده ، لا بد أنهم ، بعد خاتمه مزرية في هذه الحياة
(التي وهبهم الله إياها) ، سيأتى بهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك
يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ، فيتمسكون فيهم
في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حماة تمديبهم ، لن
يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاء وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين في أحط وأسفل مهاوى الملاك الأبدى وأشدّها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسة الخمسة للمسيحيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لندمهم في بيان طاصف لا بد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسة والستين من رده الكهنوتي : « نقد للاذع لدفاع المحتج على بيان المشيخيين » ، ظهر ، مجهولاً كاتبه ، في يولييه ١٦٤١ . واعتذر ملتون في المقدمة عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سيء السمعة عدو للحق ، ولسلام بلاده وإدائه ويخصه إذا اغتر بأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحية وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضخخة بمائه المقدس (٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه « حججه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجم فيه كاتب « النقد للاذع » بحجة تميز بها هذا العصر المغيظ المحقق (٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحججه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب الغريه العريضة « التي أوردها هول » وهي اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكده ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه في « كريست كولدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامة معهم ، وأكده من جديد طهارته التي لا مطعن فيها :

على الرغم من أنني لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والزرعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فاسفة ، كان كافياً لي جعلني أحتقر من ألوان العجور ما هو أقل كثيراً مما يجرى في المواخير . ولكنني قد عرفت مبدأ الأسفار المقدسة التي تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة . . . التي تقول بأن « الجسد الرب ، والرب لا جسده »

فإني كذلك سألت نفسي : إذا كان التجرد عن العفة في المرأة التي ينتمى إليها القديس بولص بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزياً وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك في الرجل الذي هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لا بد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترف الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذي يمكن في المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين في شخصه هو (٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثي لأحلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم ذاتي وبتراكم ، اللذين لم يكتبوا قط إلا تسكريباً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذروا لهم أشعارهما التي عرضا فيها أفسكاراً سامية نقيية ، دون تأنيب وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قايلاً حتى تأكد عندي هذا الرأي : إن هذا الذي لا يمكن أن يخيب أمله في أن يكتب كتاباً جيدة ، بمجرد أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أي مركباً مكوناً من أفضل لأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ما هو أهل للثناء والاطراء (٤٥) .

وبعد هذا المثال الذي اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قديمي الأسقف وجوربه الذي يبعث « برأحه منتنه إلى السماء » ، وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإياه دافع عنها « بقواعد أعظم الباغاه » وبأنه يحدو حدو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لا يتردد في استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض » (٤٦) .

والآن نسكتني بهذا القدر من النزاع السكريه السكثيب ، الذي سقناه لأنه يلقي ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك في ذلك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسي وفوضى الأجرومية والجل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقي ، مشرقة تميز المشاعر مثل شعر ملتون

٥ - قصة الحضارة

وفي نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة في حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذي لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة ما يفرضه من غباء وعداء تمسقى وطغيان » (٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدير عن الأمم والدول . . . لا بد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضح محلاها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجيء ، وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس نعمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض (٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهنا .

وفى كل المراحل كان ملتون يعنى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقلمة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلا : إن هذا الذى أداء أعظم المباقرة وصفوتهم فى أثينا ورومه أو ايطاليا الحديثة ، والبرايون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، ويقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحي (٤٩) . « وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراده صملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ما هو سام ومقدس في العقيدة الدينية (٥٠) » ، و « كما أن كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع في الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارىء فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتمهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجا لنزوة الشباب أو لعب الحمر بالعقل ، مثل هذا المذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقهه . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المنويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع انراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكتة (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحه المقدسة ، ليمس ويظهر شفقتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤوليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أركى هذا الأمل المنشود عند كثير من لا ينفرون من اللغصرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود (٥١) .

٤ - زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

فى « الحجة الداخضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسمى لشهرة أدبية ، ويملن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه حمد ملتون إلى تسفيه هذه الفسكرة والتنديدها ، وقال أنه على التقيض من ذلك ، « نشأ فى محبوبحة من العيش » . واتفق فى الرأى مع « أنوارك المدين يورزون فى حكمة وبصيرة بروح طيبة إلى غير ذواتهم »

تراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغني الأرامل ، (٥٧) . وبينما
انسأقت انجلبترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج
(١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من
لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن
يجموا بيت . الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار
من قبل ، واعداد إيام بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيمهم (٥٣) » .
على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ،
وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powell في فورست هل في اكسفورد
شير ، حيث كان والدها قاض المصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان
قد اعترف من قبل ، في ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك في
كبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد
بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو - يونية ١٦٤٣)
ولسنا ندرى ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو في
الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن ماري
كانت تتخلى بالمعذرية التي ينشدها . وفاقاً أبناء أخته بمودته إلى لندن
متأبط ذراع زوجته .

ولم تدم السعادة طويلاً لأحد . فقد كره أبناء الأخت ماري كدخيلة
عليهم ، وكرهت هي كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من
الصحة والأنس والبهجة والرفص . . » الذي كانت تنعم به في فورست هل .
ويقول أوبري « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون
فيتمالى صراخهم (٥٤) مذرأى ملتون أن ماري محسودة التفكير ضيقة
الأفق ليس لديها سوى النذر اليسير من الأفسكار ، التي هي في جلتها ملكية ،
فإه انصرف ثابئة إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة بسكاه

جامدة كثيية لا روح فيها ، وورنى « للإنسان الذى يجسد نفسه مرتبطا بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السمادة والهجة والسرور (٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتكافئ أن ماري أبت عليه البناء بها (٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلها ، ولما لم يجسد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان إنجلترا والجمعية « أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافا بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدما ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : -

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشئ عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزاياء الحياة الزوجية ، وهى السلوى والهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقتبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ - ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شئ . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يديها وأطلقها من بيته » . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ - ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعله الذى يجعلها تزنى » ، واحتج ماتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ بكلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة » (٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشتمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام « في حديث مناسب معقول . » لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج « يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (١٠٩) .

وفد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار تام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasteriou (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقصى القدح والألفاظ المقذحة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير بري ، ذو أنف بشع ، محام له منخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كرية الرأبحة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا تعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أي الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديقه فاجأته ماري وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها لللازمة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار المهجائين ، أو للفلسفة . وزاد الأمر ضخماً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طفلة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية ، كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة في مارس التالي .
ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزليين أو ثلاثة في لندن ، ولبعض المال ، وربما
لبعض العقارات في الريف . وفي ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع
زوجته وابنته واثنتين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفي
١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية ماري .

٥ - حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

في ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخي هربرت بالمر أمام
مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق
الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التي تضم كل
باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن
الكتب والنشرات تخالف القانون الذي يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة
الشركة . وكان هذا القانون قد صدر في عهد إليزابث ، كما أن البرلمان كان
قد جدد العمل به في ١٤ يونيو ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :
أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شيء من هذا
القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته ، من
أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل
في السجل المعد لذلك في شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من
زمن بعيد (٦١) .

ويماقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .
وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره ثرا . وعلى الرغم من أن
كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سائف الذكر
بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا إذا حظوة لدى البرلمان
لأنه ناصره في صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تناهى
عنه وحده . ولكن الأمر ظل سيقا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر
للؤلئين في بريطانيا . وبدا الملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب في ظل

مثل هذه الرقابة . فإذا يجدى خلع ملك و تحطيم نظام أستفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النظرية « أريوباجيتيكا » : حديث من جون ملتون عن حرية للطبوعات دون إجازة ، إلى برلمان انجلترا (١٠) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، وبعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميمية اطلاقاً ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية ما يجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا لحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأما تحفظ فى قنينة ، أبقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن تمه حيطه وحذر ، فإن قتل الإنسان يعدل تقريباً قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلاً يقتل مخلوقاً طاقلاً ، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكل من إنسان

(١٠) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أئتنا ، وأسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العذران من رسالة وجهها آيزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلًا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالي للروح السامية يسان ويختزن ، قصداً لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لا يكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأكلها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن نكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المختزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحه ، فمن ثم لا ينتهى الإعدام عند خلق الحياة للفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر ما يقضى على مجرد حياة (٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفسكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تقرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوبا جوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لا يدري « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا أشتم منه رائحة « البابوية » وما فائدة أن تكون رجلا : لا مجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنقع تحت نير الرخصة (للطباعة) (٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادئ على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إني لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ،
لا يمارسها أحد ولا ينشق عبرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل
تنسلل بمزول عن الناس (٦٤) . . أعطى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقص ،
بلا قيد ، وفقا لما عليه الضمير ، فوق كل الحريات (٦٥) . . ومع أن كل
رياح للذاهب وللباديء أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة
إلى الليدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك في قوتها ، فلنتركها مع
البهتان يتصارطان ، فن ذا الذي رأى يوما أن الحقيقة تنهزم في معركة حرة
مفتوحة (٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ،
فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يجرمها القانون ، ويرفض
التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هي نفسها موصومة
بالتعصب (٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فإن الدولة التي تسود فيها حرية الفكر
والكلام لا بد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أني أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم
عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتمز خصلات شعرها .
ويبدو لي أني أراها مثل نسر ، يجدد شبابيه ويفتح عينيه الحادثتين (٦٨)
في وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن
قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات
غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل
« الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساعدته ،
ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا
ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفي فبراير ١٦٤٩ ، أي بعد اعدام شارل الأول بأربعين ادين ، نشر
ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتضى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بمد إدانته إدانة عادلة (٦٩) . وبمد شهر واحد طاه مجالس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجالس اللغات الأجنبية » . فنحنى ملحمته جانبا ، ليتفرغ لمدة أحد عشر طاما ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والابطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجالس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى قفسكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة . ولم يستخدم المجلس ملتون لجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليعرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يعرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنصار المساواة ضد نظام الحكم الحديد (٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ إنجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشتد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبح بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة ، على أنه . يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوبا جيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقتضى به العدالة على عوامل الشر « (٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندري هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروي هو نفسه (٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » . وامتثل لهذا الأمر فنشر في ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحة تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتي من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدي احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير السليم المولعين بالصور ، . . . قطيع ساذج طاجز تربى على الذل والخنوع يفتتن بالطغيان (٧٣) » .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سوميز ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرطان ماأصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متمصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء . . . بقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم للمسيحى للتأرله . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء وروح وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوربته

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه ٠٠٠٠ وأن يذبحوا ،
كفضحايا على جدث الميت للقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين
تأمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم (٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت في
أوربا من الاستياء السائد في القسارة ضد حكومته ، فطاب إلى ملتون
الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة
عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره
تدريجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت احدى العينين طائلة بالفعل ، وفى ٣١
ديسمبر ظهر « دافع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن
الملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته
لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط
كتب يهاجم النظام الأسقى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المـ أجور ٠٠٠ أيها الجبان المحقر المرتد
الخارج على مبادئك ٠٠٠ يا أشد الحمقى سداجة وبلاهة ٠٠٠ أنت جدير
بعكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه
الحجج الصديانية الواهية ٠٠٠ هل تتخيل إذن ، أيها المتعلمن المحامى الصغير
الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب ، الذى لم يؤت أية
موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تكتبه الحياة من عندياتك ؟
صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجيل
القادم . لولا أن « دافعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ،
بعض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ،
فإنه لذلك سيبحث من جديد (٧٥) .

وهذا هو ما حدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضفى على
شارل الأول صورة مثالية . ولكن ملتون يحط من قدره . ويشتهه فى
أن شارل عرض دوق بكنجهام على دس النعم لوالده جيمس الأول ، ويتم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلقى والإثم » مع الدوق المذكور ، ويتهم شارل بتقبييل النسوة فى المسرح ، وبعدا عيته أئداء العذارى والعقيلات علنا (٧٦) . وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثار ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غيى ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مغتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويمنقه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم (٧٧) . ونظر توماس هوين إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة (٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعده بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشؤون الخارجية إلى شئون بيته . فى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيريج كروس » لىكون قريبا من عمله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة قدم ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السويت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عيني » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتباً ليدون له ما يعليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، فى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلك لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامي الحمى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهية يحوطها الغموض والإبهام (٧٩) . وظل على إعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم نبي الوهم وأكثرهم تألقا وامتيازاً » . أنه أبو البلاد ، وأنكذبته « أبى فى التلاف .

المجتمع الإنساني ليس نعمة شيء أحب إلى الله ، أو أكثر إنثاماً مع العقل من أن يتولى أمضى العقول السلطة العليا (٢٨) .

وسرعان ما طلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الخمي » في اتهام خطير . ذلك أنه في ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملسكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخيم الجسم ، مكفوف البصر ٠٠٠٠ جلاد ٠٠٠٠ يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم (٨١) وسخر من جبر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاماً أن يجارها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لهما يثير الاشتزاز ، كما يثير السخرية للريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون والاصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، آهاب للؤلؤف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتميد آل ستيوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القدر للتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل في أن يلتقى وشيكاً شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحانث سدد الضربات جيداً ، وشوه كل بوصة فيه بأثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كثة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين (٨٣) .

واستمحت مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقفاً لجملة من سالماسيوس ، أملاً في أن يرد على الخصمين في رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم زده . وخدع ملتون في اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملسكى » هو الكساندين مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم في مدلبرج فطلب إلى مراسليه في المقاطعات للتحفة موافقاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة (٨١) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكداً أن مورس ليس هو المؤلف (٨٥) . ولكن ملتون أبي أن يصدق هذا ، وأيده في هذا ، ما يتناقله الناس في امستردام . وفي أبريل ١٦٥٤ كتب جون دروري إلى ملتون ، محذرا إياه بأنه غطى في نسبة « صرخة الدم الملصكي » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفي ٣٠ مايو كتب الدفاع الثاني للشعب الإنجليزي « - جون ملتون .

وكان سحر البيان في هذا الكتاب الذي بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كلف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهي جزاء خطايا الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمي بهزيمة ساحقة ٠٠٠٠ إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيراً . فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرصه بما لست أدري من الللق القبيح للمسرف ، على أن يرقمنا قدر الإسكان يمدحهما ، ما حل بشخصه مؤخراً من دمار غير متوقع (٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمه بالهرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم الملصكي » . نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سيء السمعة (٨٧) . وفي ظرف وصرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته في أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة .

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لا يدان به فضل ، فاهض
فى طريقك القويم ، يا كرومول ، يا محرر بلادك ، ويا من أرسى دعائم
الحرية فيها ، ويا من تفوقت بأعمالك المجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ،
بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن
يمحض كرومول النصيح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال
من أمثال فليتيورد ولبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة
وأن يترك الدين منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية
عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل ما فيهم سمين ، حتى عقولهم
دون استثناء ١٨٩) . ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه « ونحن
نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية
التي دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالاً ودماراً ، لا لشخصه فحسب ،
بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى
بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديمقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم
على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب
رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم
الموائد فى بذخ بانغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين
السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا
فى البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحسكة والخبرة والنقمة ، بل أعضاء
صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! وبعبارة أخرى تحصل على أعضاء من تجار
الخمر والباعة للتجولين ، من الخائبات فى المدن ، ومن الرعاة ومرجى للماشية
فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يسكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء
الذين لا يثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :
فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقيماً قاعداً معتدلاً
مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدي الناس ، وقصارى القول ، أن
تكون شهماً رحب الصدر شجاعاً . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت
على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على
الامة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتي
استعبدتها شهواتها ، بأنها لا بد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع فى ذل
المبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفى أكتوبر ١٦٥٤ أطاق أولئك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، فى
لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامغ » . وفى المقدمة
أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم للملكى » ، وأنه ، أى
أولئك ، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذى أى أن يميظ اللثام عن إسم
المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد
أبلغ بهذا سراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ،
لأنه لن يتبقى منه شىء يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس .
وفى أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع
عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فملمته
الشائنة مع خادمه سلماسيوس ، وأضاف أنها ، فى شجار مشروع أوسعت
مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه (٩٣) . واسكن تبين فى
خاتمة اللطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ،
هو الذى كتب « صرخة الدم للملكى » ، وأن مورس هو الذى نشره
وكتب إهداءه (٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس
الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى
الأبرشية لمنع تعيينه (٩٥) . واسكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك
كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفها للمضايقات (١٦٧٠) وهو أفصح

الوظائف البروتستانت بيانا في باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون في مظهر أرق في قصيدة السونيت « مذبحه بيد مونت » (١٦٥٥) ^(٥) . ويحتمل أنه هو الذي دون الرسائل التي أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر خالدو — بيوريتانيون منشقون في جنوب فرنسا) ، والى مزران وحكام السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفي ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التي لم تسكتحل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عفيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصبية على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتيني أن يحافظ على منصبه ، قدر طاقته ، في غمرة فوضى الأحزاب التي انحدرت بريتشارد كروهول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لا بد كان يدرك أن انجلترا سائرة في طريق استعادة ملكية آل سنيوارث ، فإنه أصدر في أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجائزي عن نفسه » في أسلوب يغري بالاستشهاد . وفي مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ٠٠٠ تنعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ، ووضعه في المرتبة التالية لما آثر كرومول ، الذي أقتد حرية انجائزا (٩٦) .

وقاوم في شجاعة صمياء حركة إعادة شارل الثاني ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون في فبراير ١٦٦٠ رساله موجهة إلى البرلمان ، تقع في ١٨ صحيفة ، « الطريق للمهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساويء ومخاطر

* أنظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية في هذه الأمة . ومهرها في جرأة وبساله باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها : ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الإنجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لنا هذه الحرية ، التي اشتريت بحياتنا نحن . وماذا عسى أن يقول خيرانا عنا وعن إسم إنجلترا ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل النجس ، الذي أورد (مخلصنا) ذكره ، والذي بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذي تباهى الإنجليز بأنهم سيقدمونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح إنجلترا رومة أخرى في الغرب ؟ ٠٠٠٠ ما هذا الجنون الذي اعترى هؤلاء الذين يستطيعون في شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحاولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد يا للجبين والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وعملنا الجاد (١٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التي ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . وافترح أن يحل محل البرلمان (مجلس تام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى للوت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلي . واختتم ملتون رسالته بقوله : « أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوقفهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أفسد من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

اللتفشى في الجمهور الذي أسى استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده (٩٨) .
وتجاهل البرلمان هذا الالتماس الذي ينطوى على القضاء عليه . وظهرت
النشرات المطبوعة التي تهاجم ملتون ، وحبذت إحداها شنقه وأصدر مجلس
الدولة ، وهو آئذ ملكي النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ،
وفصله من منصبه (السكرتير اللاتيني للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه
أصدر طبعة ثنائية مزيدة من الرسالة « الطريق للمهد السهل » (أبريل ١٦٦٠)
وحذر البرلمان من أن الوعود التي يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض
بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب
في عودة شارل الثاني ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق في استبعاد
الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل ٠٠٠٠ إذا وصل الأمر إلى حد
الفرض بالقوة ، أن ترغب الأقلية بمجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها .
من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بنى وطنهم أن يكونوا عبيدا
أرقاء لهم ، بشكل يسيء إليهم أبلغ اساءة (٩٩) . وتكاثر الهجمات والهجومات
على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثاني ، وكان آنذاك في بريدا
أن يتذكر جيدا الإهانات التي وجهها ملتون من قبل في رسالته « محطام
الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى
قائمة قتلة الملك الفعلين ، لأنه يستحق الإعدام (١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثاني ، كان قد أبحر هو بالفعل
إلى إنجلترا ، وفي ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد
الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة
أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكي ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان
نمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل
دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته
وبصره المكفوف ، فاكثفتي البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها
من مؤلفاته ، حينما وجدت . وأطلق سراحه في ١٥ ديسمبر ، فأتخذ دارا

في هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر عامًا —
صاخبا غصيبا مضطربا ، عن النشر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهي
فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء في العزف على الأرغن وفي الغناء ،
ويقول أوبري « كان صورته رخيما رقيقة » (١٠١) « وفي ١٦٦١ انتقل إلى
دار أخرى ، وفي ١٦٦٤ استقر به للمقام نهائيا في بيت في Artillery Wolk ،
فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه
وقدميه . وكثيرا ما قدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته ، وقد نسوا
ما كمال لهم من ضرب في سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقروا له ،
أو يكتبوا ما يمليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافذ وجهد
جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لسكناء . وكانت ديورا
تتولى له الكتابة ، وتعلمت هي وأختها ماري قراءة اللاتينية واليونانية
والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان
ماتقرآن (١٠٢) . والحق أن أيامنهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولسكنهن
تلقين بعض الدروس الخاصة . ولسكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ،
على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعين
بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن بمن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه
في وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تأمرن مع الخدم على مخالطته وسلبه عند
شراء حاجيات المنزل (١٠٣) ، ولم يشعر البنات بالسعادة في هذا البيت .
الكتيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته ماري
بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس نمة أبناء تستحق أن تسمع عن زفافه ،
ولسكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته » (١٠٤) . واتخذ ملتون في
١٦٦٣ ، وهو آنذاك في الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هي اليزابث
منشول M nshull ، وكانت في الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

باخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التي وصفها أوبري بأنها « وديمة مسالمة مرحلة مقبولة » (١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تسكفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لتنظيم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه في التراشق بالنشر في المعركة ، لأن « المقاتل » كان في مثل قون « الشاعر » في شخصه . ورغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل في أن يكتب لانتجارتها شيئاً تتغنى به لقرون قادمة . وفي ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذي يفترض أنه عاش في القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاً له ، فكر في أن يكتبه على شكل مأساة إنغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفي أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد في القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت بوميا ، ليكتب الملحمة ، وفي ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

في الأيام السود ، وألسنة السوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتشفنا الأخطار من كل جانب (١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان برقد طاجراً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلاً : « إنه يحتاج إلى من يحابه (١٠٧) » . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملي أربعين بيتاً « في نفس واحد » ، ثم يجد في تصحيحها عندما تماد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجهد والسكد والشجاعة والجرأة . وداخل ملتون شعور قوي بأنه يمثل لانتجارتها هو ميروس واشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبى أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفي ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ، هو توماس الود ، لنقل ملتون ليقم في « كوخه المكون من عشر حجرات في « كالفوت سانت شيل في بكنجها مشير » . وهناك في هذه « المقصورة الجميلة » أكل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن في اضطراب بالغ في ١٦٦٥ - ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء في أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شيء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة المملكية في صخبها وعربدتها . وفي حالة نفسية ليس معها مجال للملحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، في ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه في « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فسكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيهاً (١٠٨) . ونشرت القصيدة في أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها في العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفي الأحد عشر عاماً الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء في أية سنة في أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيراً من الأدوات التي توفر الجهد .

وتشارك « الفردوس المفقود » مع « ابيادة فرجيل » ، فيما أصاب كليهما من نكسة وتمويق ، لظهورهما بعد الياذة هو فيروس ، فان مشاهد المعركة والمحاربين المحارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، اسكونهم تقليداً ومحاكاة . ولا ريب في أن هو فيروس قلد نماذج قديمة ، ولكننا اسيناهها ولم نعد نذكرها ، وذبح جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها متممة مشوقة لجميع دائماً « ولكنك

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة في أن تكون أطول مما هي (١٠٩) .
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . ونمار الشجرة المحرمة التي جلب
مذاقها القاتل الموت والقناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب
والويلات » ، كان موضوعا مناسباً إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ،
حين كان يتلقى سفر التسكريين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ،
والملائكة والشياطين ، هي نسيج التفكير اليومي . أما اليوم فإن موضوع
القصيدة أكبر عائق في سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان في أحد عشر
قسماً ، وأن الاستمرار في مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من
البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليطالب اليوم جهدا شاقا متسلا .
وما كان الهراء ليسغ عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد
وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسباب الفخيم المهيب للشعر
المرسل ، ومعالجة الموضوع المسعد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد
للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباب الوقعية والشخصية على آدم وحواء ،
وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التي
جملت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة في اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصة في جهنم حيث الشيطان على هيئة طائر « ضخم الجسم » ،
ذو جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهايطين بالأيأسوا :

لم يضع كل شيء ، فان الإرادة التي لا تقهر ، وتدبر الأخذ بالنار
والسكراهية التي لا يخبوا أوارها أبداً ، والشجاعة التي لا تخضع ولا تستسلم ،
أما أن تنثنى متوسلة للرحمة ، على ركبتيين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه . . .
فهذا أمر دنيء حفا هذا خزي وعار أنسكى من هذا السقوط ويبقى العقل
والروح ولا سبيل إلى قهرهما (١١٠) . . .

وكأني بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ،
وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثاني ؛ ونعم عدة قطع في وصف
الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لا يغير منه زمان أو مكان ، فالمقل راسخ في مكانه ، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنه جحيمًا ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفي الأجزاء القديمة من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أفرته بأن يرسم لابليس صورة تسكاد تتسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد الساطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه « أبو الأكاذيب » الذي « يجثم مثل ضفدع الطين » . أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (١١٢) . ولكن في هذا القسم من الملحمة نفسه ينهض الشيطان مدافعاً عن المعرفة :

المعرفة محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تسكون للمعرفة انما ؟ أو تسكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هي دليل طاعتها وإيمانها ؟ سأثير في عقليهما مزيداً من الرغبة في المعرفة (١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانيه تحمل على كنيسة جامدة تعيش في ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفة :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده وبيتهم على حالة من الإلحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تأكلان من تلك الشجرة ، فإن أعينكما التي تبدو الآن صافيه ولكنها كليله ، سوف تفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهه (١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يسكب من حبه لاستطلاع السكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ما وراء نطاقه الفاني (١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة في المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على الققيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوربتانيه اطلاقاً ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسيه ، في حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة » (١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أي أكل
الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأ يستشعران الخزي والعار في
الاتصال الجنسي (١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل
الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعه » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله في النهايه هذه البدعه على الأرض ، هذه الملة الجميلة
في الطبيعه ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ،
أو يجد طريقة أخرى لتوالد بني البشر (١١٨) ؟ .

ومن ثم فإن الإنسان الأول ، في تاريخ الزواج في الكتاب للقدس ،
سرعان ما اصطنع ذريمة ليطلق الرجل زوجته في سهولة ويسر ، وهنا نجد
ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع
للرأة خضوعا حقيقيا تماما للرجل (١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة في قصيدة
« Samson Agonistes » (١٢٠) . فهي حمله الأثير الحبيب إلى نفسه . وفي
رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات ،
ألم يجزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع
دون إلغاء أو تعطيل ؟ (١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ،
فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثني عشر قسما ، لأن لللمحة تتطلب
سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين
بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات
أو العودة إلى الماضي ، وهو صدى آخذ في الذبول والثروال . ومشاهد المعركة
موصوفة وصفا جيدا ، بما في ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج
الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة
الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين
يطلق ملتون لنفسه المنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء
يخطبون ، ولم يجد الشيطان في سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

لمن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى في الجحيم سنكون مضطربين إلى الاستماع إلى محاضرات .

« والرَب » في هذه القصيدة ليس هو التآلق الذي يجلب عن الوصف الذي تحس به في « جنة دانتي » فهو في القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصراني من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شيء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويحلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتماسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومها ، من عدم التعرض للإغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذي يطبق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادي الذي لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبري المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لافي « الفردوس المفقود » حسب ، بل في رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك (١٢٢) . أي أن الله ، قبل خلق الإنسان زمن طويل ، قدر أي الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأيها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شيء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا في ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا في ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديرة بالذكر ، فهي تبدأ في إطار من التقوى ، ودون جدل أو لجة ، بافتراض أن كل كلمة في الكتاب المقدس هي وحي من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى في صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لا يجيز غير التفسير الحرفى الأمين . فلماذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا . أو حزينا ، فإنه ينبغى أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهرى ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التى تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه (١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافة إلى هذا الكشف الظاهرى الذى جاءت به الأسفار المقدسه ، والذى يكشف به عن كنهه فإنه ، زدنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوحى الداخلى « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسه (١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، ما يؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسه ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليديه ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمه ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « الوجود أى الكلمه » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم الماده ، مثل عالم الروح ؛ إبتثاق أو فيض سرمدى من الماده الألهيه . وحتى الروح نفسها ، فهى ماده رقيقه جدا أثيره ، ولا يجوز تمييزها تمييزا حادا عن الماده . وفى النهايه ، الماده والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شئ واحد (١٢٥) . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظه بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ - ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ، وقد نرى أنهما فارقا الحياه فى نفس المقدم من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطاً غريباً من التوحيد والمادية ، ومن مذهب
حربة الإرادة عند جاكوب أرمنيوس (لاهوتى برتستانى هولندى
(١٥٦٠ - ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن .
ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلاً متعمقاً فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب
قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى
بيته (١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخصص وقتاً
للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف
الصلوات جميعاً (١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونهى على كرومول احتفاظه
بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة
الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا (١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة
« بحث فى العقيدة الحقة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ،
وأمثل الطرق للحيلولة دون نحر البابوية » (١٦٣٣) طرض بطريق مباشر
الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذراً
انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى
لا تعترف بالكتاب المقدس أساساً وجيداً المذهباً .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال
الدين وتدخلهم فى الشؤون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل
الذى أخرج للعقيدة المسيحية أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد
البصر ، بصحة جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دهماه وساندها فى كل
الصراعات الدينية والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ٠٠٠
متوسط القامة » ٠٠٠ فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق
المتوسطه ٠٠٠ صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل ما فى
الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه (١٢٩) . وكان شعره الذى فرقه

في الوسط يتدلى على كتفيه في حليقات أو عقصات • ولم تنبي عيناه عن
فقد بصره • وظلت مشيته ثابتة منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه
شدة الحساسه والكلف بملاسه ، وتمنطق بسيف ، لأنه كان فخورا ببراعته
في المبارزة واللعب بالسيف (١٣٠) • وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد
وقارا ، وعزوا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلوا الحديث إلا إذا لقي
سعارضه • ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمة : كان عنده شعور
البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التي لا تخطئ ،
ولسكنه استمساخ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى
عدة زوجات ، وتخلفت أنارة من حيويه عصر الزباث وسط رزائمه الخاليه
من المرح • وكان أنانيا ، وأنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الإفراط
غير المؤلف • إنه كما قال أنطوني رود : « لم يكن يجهل مواهبه (١٣١) » ،
وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتحح قليلا من
الناس ، مثله (١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقرية أنانيه يدعها اعتداد داخلي
بالنفس ، حتى تقف في ثبات في وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله
في ملتون هو طاقه السكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا
عنه وذهب إلى أنه ينبغي علينا أن نصلى من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغي
أيضا أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك
على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقتربون الآثام الفظيحه ضد الله ، أو حتى
ضد أنفسهم (١٣٣) • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوهه ، فهو شجاعه
النبي في استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكتم فاه ما اقترن بعودة المللكيه
من شعب وصخب ، هاجم في عنف ، غراميات البلاط « في عهد شارل
الثاني » ، « والشهوات والاغتصاب » في القصور ، و « البسات المشتراة على
شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أو حفلات الرقص في منتصف
الليل (١٣٤) » •

وكأنما كان ملتون يقذف ، بأخر سهم في جمعته تحديا للمصر المظلم ،

حين نشر في يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) في غير ماشفقه ولا رحمة ،
اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . في ١٦٦٥
بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تمدها قائلاً :
« لمتد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المنفقود ، فماذا عساك تقول الآن عن
الفردوس الذي وجد ؟ (١٣٥) » ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه
تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس في أية مرحلة في التاريخ ، فإن
موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه
فسكر أنه رأى في مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله
في الإنسان لا بد يوماً أن يقهر جانب الشيطان في الإنسان نفسه ، وبهيمته
للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فإن ملتون في الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم
يركز في حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء في البرية » ،
حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجل من سقاة الآلهة » ، ثم
« الحور والعذارى القماتنات ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبي » ثم
يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان
رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس المنهوك المسكروه الذي لم يعقب ،
فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور
على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا في عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ،
أراه أننا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب في اللحاق بهما ليسكون
فيلسوفاً ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان في حوار غريب حول مزايا الأدب
اليوناني والعبري . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على
أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تجسن تقليدها (١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقتهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمة ،
وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتنشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت
الفردوس المفقود (١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التي تجلت في الملحمة
الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته في الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما
أمران معهودان فيه ، كما كشف في القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته
في الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر في القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما
كان سر ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح
أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان
السعادة . ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجسد ، إعادة
كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة
الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها (١٣٩) .
وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس
المسترد » (١٤٠) .

وتألفت عبقرية ملتون لآخر مرة في « شمشون أجونست — الجبار » .
إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بلحمته ، نراه الآن يتحدى
أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا)
اليونانية . وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلاحظ أن المسرحية
(الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتنجب « خطأ الشاعر
في خلط المادة الهزلية (الكوميديا) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ،
أو في إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر
الزباث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية .
إن شمشون الذي فارقه قوته بعد أن حلقت دليمة سبع خصلات من شعر
رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا
لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف في كورلونس ، بل أنه يحكى ملتون
نفسه يعيش في عالم بغيض لا يرى منه أترا : — م ٧ — قصة الحضارة

« ضريبين أعداء، أو اه هذا شيء أسوأ من الأغللال أو الزنانة أو التسول، أو العجز بفعل الهرم، فالضياء، وهو فاتحة صنع الله، منطقي، أماي، ولا أملك من مباهجه شيئاً. ربما كان يهدى من آلامى وأحزاني، آه، أه. ظلام والقمام والخلسكة وسط وهيج النور عند الظهيرة، ينشر كسوفاً كلياً لا خلاص منه، دون أى أمل في بزوغ النهار (١٤١) ».

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة: فملتون هو شمسون يناضل ويتعذب في محنته، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون، أى الشعب المختار حطمته عودة الملكية، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون، وهدم هيكلهم يسكاد يسكون تنبؤاً « بالثورة الجليلية » التي أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » في ١٦٨٨. أما دليلة فهي المرأة الخائنة ماري باول، Powell. وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجيج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق (١٤٢). ويسكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحقده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمسون الذي يتقبل نهايته التي لا بد آتية:

« سوف تمضى سلالة المجد، أما سلالة الحزى والعار التي ستبقى فسألحق بها وشيكا (١٤٣) ».

وفي يولييه ١٦٧: أحس ملتون بأنه يضعف وتنهط قواه، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته. وبدلاً من ذلك، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تكاد تكون غير مسطورة، نقلها كريستوفر على الوجه الآتي:

« أخى، إنى أترك نصيبى من تركه مستر باول Powell والد زوجتى السابقة، لأولادى العاقين، ولسكنى. لم أتسلم شيئاً منه ووصيتى ومقصدي ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور، وبما ضيعت من أجلهم، غيره، لأنهم قصروا أشد التقصير في القيام بواجبهم نحوى، أما بقية ضيعتى فأنى أضعتها تحت تصرف زوجتى الحبيبة إليزابث (١٤٤) وأطاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسمع زوجته وأناس غيرها في أوقات مختلفة.

وتفبت ملتون بالحياة في عزيمة قوية . ولسكن آلام النقرس اشتدت عليه
يوما بعد يوم حتى شلت يدها وقدماه . وفي ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ،
وفارق الحياة في تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر .
ودفن في مقبرة كنيسة الأبرشية ، في سانت جيل كر بلجيت ، بجوار والده .
وكان القانون الإنجليزي يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن
المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبهم ،
ورفضها القاضي ، وأعطى ثلثي المال للزوجة ، والثلث الباقي ، وقدره ٣٠٠
جنيه للبنات . أما الحصة في أموال باول فلم يدفع منها شيء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من
تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفاً كاملاً .
ولسكننا لا نزال نجهد ما يكفي للحكم عليه - إذا كان هذا ممكناً بالنسبة لأي
رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستياءه إلى هذا الحد ،
ولا كيف طامن زوجته الثالثة التي واسته وأراحته في سنى شيخوخته ،
ولسكننا نستطيع فقط أن نبدي الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم .
ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيباً على الصحافة أيام
كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو
كثيراً من تصنعه وبذائه في الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد
نغمغر غروره وأنايته باعتبارهما الركنين التي تستند إليها العبقرية إذا لم تجد
إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلاً ،
والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز .

إن الذين يعتمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ،
سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالباً ما تحلق في آفاق عالية من الخيال
والبيان ، حتى ليغمغرون ان عاجلاً أو آجلاً ، الصفحات المملة المحشوة
بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من
من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحق أن نتوقع أن تبقى هذه التحقيقات

المعطرة في التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا في القصائد القصيرة . وهناك في نثر ملتون وبخاصة في « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، في قوتها وروعها ، وفكرها وموسيقاها ، شيء من سائلة الأدب الديوى في العالم .

وأضنى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفي الفترة التي صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناظلا ناثراً ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى في عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذي احتقر شيعته ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طالب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن أن يعمد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذي دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى في هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذي قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر (١٤٥) » . تقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الغروس المفقود » من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد (١٤٦) . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكاته الرفيعة . وأطنب أديسون في إمتداحه في مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت إزدادت صورة ملتون رفعة وقداسة في ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى نالها وردزورث في ١٨٠٢ :

« أي ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا في هذه الساعة . . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدير كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله خلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى في الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عودة الملكية

١٦٦٠ - ١٦٨٥

١ - الملك السعيد

دخل الملك شارل الثاني لندن في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠،
أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده ، وسط مظاهر فرح وابتهاج ، تفوق
كل ماتعيه ذاكرة إنجلترا من مثلها ، يواكبه عشرون ألفاً من حرس المدينة ،
تفرغ أعلامهم اعترازاً وزهواً ، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع
انتشرت فيها الأزهار ، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور ، تدوى فيها
الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب ، وتكتظ بنصف سكان المدينة .
وكتب ايفلين : « وقفت على « الشاطئ » ، ورأيت هذا المشهد « وجدت
الله (١) » . وهو مشهد كشف عن مزاج إنجلترا ، وخيبة البيوريتانيين
واخفاقهم ، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب
والاضطرابات ، على حين لم ترق نقطة دم واحدة في سبيل عودة ابنه إلى
العرش . وتقاطر الإنجليز على قصر هويت هول لتحية الملك ، طوال هذا
الصيف الذى غمرته البهجة . وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال
والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه ، شديداً إلى حد أنه لم
يسكد يجد فسحة من الوقت لتناول الطعام لمدة أيام ٠٠٠ ولما كان الملك
راغباً كل اغبة في ارضاء نفوسهم ، فإنه لم يرد عنه أحداً ، ولم يغلق
الأبواب دون أى من الناس (٢) » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه
سعيداً مثله .

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد في أيام الظفر هذه ، لجلت

العائدات والمصاعب التي ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيتها و ٢٨ شلنا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت إنجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنسكرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلالات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكترات ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سميدا ، سيطرت عليه الموهلة الأولى ، نزعنة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتهكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد (٣) » وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، وان ينجوه من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناءا على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه (٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ؛ أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه نواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى (٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التثريعات التي أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التي كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذي حاكم إنجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفاً ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنى البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفي ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركوني في القضاء على الخوف الذي استولى على قلوب الناس وأرقهم ، فإنكم بذلك تحولون بيني وبين الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن . . . ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن تغفر لهم نحن ذلك . . . وإني لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء - القتلة المباشرين لوالدي - ، ولكني - وسأكون صادقا معكم - لم أفسر قط في استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم . وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم (٦) » .

ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام ، ولكن شارل أمر على ألا يستثنى من العفو إلا من وافقوا بالحكم بإعدام والده (٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثاني بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكوا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ أكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيتر : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبندو مرعبا ، كما يمكن أن يفعل أي رجل في مثل هذا الموقف ، وتحدث بفجاعة من فوق المشنقة

قائلًا أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه (٨) .
ويضيف بيترز « وفي الحال مزق أربابا ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ،
فتعالت صيحات الفرح (٩) » ، وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمرا بإخراج
جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها
على أعواد المشانق . وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنا كان هذا
لونا من الاحتمال بذكري موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة
يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) ، ودفنت الأشلاء
في حفرة تحت مشنقة تبيرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهال
« لحكم الله ، وهو حكم هائل تحار فيه الألباب (١٠) » . وثمة ضحية
أخرى ، هاري فين ، الذي كان يوما محافظا لمستعمرة خليج ماساشوست ،
فقد شنق في ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد .
وفي هذه القضية أغمضت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء
على « سير هاري » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجن وشجاعته
أنهأ المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهّد
الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلا للشعب . وفي غضون ذلك واجهت
الحكومة أول مظاهرة عدائية تنازع في شعبيتها في العاصمة . أن هذه
الحكومة لم تفعل شيئا لاسكات الشيع الدينية التي ظلت تأمل في نظام
جمهوري : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العباد والمستقلون وأصحاب
مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتلبأوا بأن الانتقام الإلهي
سيحل بها سريعا ، فيرسل الزلازل والدم والصفادع تنقض على بيوت موظفي
الملك . وفي ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك في توريسوث يودع أخته
الخبيرة هنريتا وهي في طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والمعيان أحسد
للمشتغلين بصناعة دنان النبيذ في مجمع « لقديسى الملكية الخامسة » ، وعندئذ
سملح سامعوه للمهاجرون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وحاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمسكت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للمشاغبين وإقتيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتي يعترف بها الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التي استعادت مكانتها ، وهم يسحون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أو أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوربتانيين . ووجد شارل مشقة فى أن يثنيهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التي كان قد فتمدها شارل الأول : من ذلك أنه لا يصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التي جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيما بعد إلى صفار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكلوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى في حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عروفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الألهية الحق في السعادة والهناءة ، وأدخل جنات عدن التي وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بجد وكد في شؤون الدولة ، وقد بولغ في إهماله لها (١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شىء على عاتقه ، وينصرف بكلية إلى إدارة شؤون البلاد في كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه في أعوام المسلك كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون في ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته . وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة مارى جيز أو اللورين ، أضيف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمر كيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا ضافيا ولكنه غير راسخ . أنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين في القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية . ثم رآها في أبهى صورها في أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأصفر يذكران بجده الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدة جده لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقونى هنرى نافر ، شفتيه الشهواتيتين وعينيه البراقتين وأفمه المتطفل ،

بل وربما ميّله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثاني أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذي به حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام لفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهوفى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وولتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغووث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لا تعرف الآن أسماءهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلييرز — قد أقامت لندون وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتبول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكيم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين (١٢) ، وازدادت تفواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والنمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات (١٣) .

وفى ١٦٦١ فكر شارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صديق هياته العناية الالهية لبنى بمحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠٠ ر. ٥٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد)
بعباي ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال في آسيا وأمريكا
وتمهدت أنجلترا في مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال في المحافظة على استقلالها
ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل في استقبالها
للترحيب بها ، وتزوجا في ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولاً ثم
الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدتها يقول أنه « أسعد إنسان في العالم »
وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة للطوق ،
ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة في غرامه لأول نظرة ، وسارت
الأمر سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن في يولييه وضعت كاسلين ولداً
شهد شارل تغميده على أنه « العراب » (أبوه في العهد) — وتلك مناسبة
أخرى يستخدم فيها اسم الله عبناً ولنوعاً . ومذ هجرت باربارا زوجها ،
أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ،
فاستسلم لرجائها ، وسرطان ما استأنف علاقته بها ، وفي إخلاص موصوم
بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد السلوك القوية للألوفة ، فقدم باربارا
علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط
الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من
الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكي مدترف به الملوك
في أعرق أسرات أوروبا . وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب
زوجها الشرقية ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوعدت عينها على
« شبدب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت في رفق وتلطف « حتى لا تصاب »
الحقنة الجليلة الصغيرة « المختفية وراء الستار بالبرد » (١٤) ، وكات هذه المرة
المنثلة — هول دافيز . هذا في الوقت الذي حاولت فيه كاترين كثيراً أن
تنجب لشارل طفلاً ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق —
أجهضت عدة مرات . وفي ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع في أحكام
الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يجبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بييز البلاط في ٢٧ يولييه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جموة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لا بد معترف بينوته ، وإلا فأنها ستحمل الوليد إلى قصر هويتبول ، وتمشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أى زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والبطالة والفجور والسكر والبرودة ، وغيرها من أخط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلاً لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة (١٥) » .

وضاق شارل ذرعاً بغضبات كاسلمين ، وفي إحدى زيارته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل - دوق مالبرو فيما بعد - ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك (١٦) ، كما يروى الأسقف بيرنت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أول الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين (١٧) ويقول أنطونى هاملتون « ينذر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا (١٨) » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعهد زواجها من دوق وتشمووند ويصف بييز الملك وهو يجدف وحسده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديدية موصدا تساق الجدران ليوزر هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة (١٩) » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهى تمثل فى « مسرح درورى لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغنياتها ،

وتببيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة و ارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم الملدات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطيرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخرها منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغي البروتستانتية (٢٠) » واستمرت تخطف بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى في ساعة احتضاره . أما كيرووال التي عيذت على الفور دوقه بورتسموث ، فقد أثار حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها صميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتنى المجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين (٢١) وتنافس ظل سلطانها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسني ابنة شقيق السكردينال مازاران المرحة المفعمة بالحياة والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التمس فقد كل النقمة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كلوا صفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد - اللهم إلا أخته - وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تكن نعمة ود خالص . قيم باقي ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش في سلوكه وعاداته ، فانه أبدى في بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون (٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر في أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطي المسكرات (٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنتري حده ، وتساءل في البرلمان علانية « هل يجد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمنوا له وهاجموه وهشموا أنفه (٢٤) .

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجد في المحلقة ملك في مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقذ رجال حاشيته واتباعهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المنتزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها في حجرة نوم الملك (٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أيساً ، حلوا المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرطان مايمهدى من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكركل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنتري ، أنه « ملك ودود طلق الحياء (٢٦) » ، وعده جراهونت « من أطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة (٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ في الجماله (٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه في فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات . وكان يفضل شعبه بكثير في التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بـ « بيزر » بأنه كان يقود الحلقة في رقصة ريفية قديمة - cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحة ولهو الصاخب - لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الانفاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثاني عميق التفكير ، ولكنه لم يتعمق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولما شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية الملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيرا من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيرا بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى في حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة في فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملاحن) ، وعن هندسة المهارة مع رن . وكان حاميا ونصيرا حسن التمييز في كل هذه المجالات ، ولا بد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تجلّى بها رجل قالت عنه أخته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة « إني أحببته أكثر من حبي للحياة نفسها . وايس ثمة شيء أسف عليه في موتى ، إلا إني أفارقة » (١٢٩) .

٢ - مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التي سادت كثيرا من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهبان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الديني كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يسكن من التظاهر بالنفاق ولكن بساوكة الموصوم بالتهاون في الصلوات وفي الأسرار المقدسة ، كان لا ي

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر في ذهن الملك أنه لا علاقة له بهذه الأمور (٣٠) . وقال أحد الوعاظ مرة لنبييل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط في نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك (٣١) » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا (٣٢) » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أممى غير مجسم تقريبا ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبي . واتفق أول بكنجهام ومركيز هاليفا كسى مع سانت إيفرموند في هذا الرأى (٣٣) ويروى بيرمت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملجدا ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشيء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ (٣٤) » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الطرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، في حكمه السلمى (٣٥) .

ويحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شيء من الإنعطاف نحو الكاثوليكية ، بمعنى أنه كان يشك في اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأبيدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقرروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا في سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (٣٦) ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون في منقاة الطويل الأمد - إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة في التخفيف بعض الشيء من القوانين التى صدرت في إنجلترا ضد الكاثوليك ، وهى فى تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة ، بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشه للدم (٣٧) . ولم

٨ - قصة الحضارة

يفارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود » ١٦٠٥ ، أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا في رومه . ولم يفضب لالتزام أخيه العلني بالمذهب الكاثوليكي - والمفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلثة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عبقليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسي اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت في الدفاع عنه ، وطأت ما طابت في أيام كرومول ، وكأخت كفاحا شديدا في سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينية تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة للنشر التعميم وإقرار النظام الاجتماعي . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطلعوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذي أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التي كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح في هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل في أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعادية للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخي ، انضوا إلى الأنجليكانيين في رفض هذا المشروع . ورغبة في المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدودا يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمنورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوي » المكون من اثني عشر أسقفا ، ومثلهم من المشايخ - أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق (٣٨) » .
وتلك فرصة ضيقت ، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة . فنهكاً الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفي في اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية للمعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الأنجليكاني » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى « قانون التوحيد » (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة . وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد فايتيه ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر في النهاية على إصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يمدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتي الأبيض ، أو استخدام الصليب في التعميد ، فوافق الهوردات ورفض النواب . وسمى الملك للتخفيف من أثر الطعمة ، بتأجيل تنفيذ للرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه للمساعى كذلك . فأصدر في ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التي نص عليها القانون الأشخاص للسالمين الذين أبت عليهم ضمايرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب في هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك في الاعفاء من إطاعة القوانين .
وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتأكيد على التسامح الديني في المواثيق التي منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفي التعليمات التي وجهها إلى حاكي جايبكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس نعمة متسع لهذا التسامح في إنجلترا . ولكي يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر في السجن) للثانية ، والنفي إلى مستعمرات المجرمين ، للثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفي ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على المساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا في نطاق خمسة أميال في أية مدينة ذات مجلس بلدي ، أو يقوموا بالتدريس ، في أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذي فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التي طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته في الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحي (٢٩) .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذي قبل ، « حق الملك الإلهي » ، والإثم العظيم الذي يؤدي إلى الهلاك ، في مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفي ١٦٨٥ نشر كتاب سير روبرت فلر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسى عن النظرية . وفي كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسة الأنجليكانية أنه « زيف وتحريض على الفتنة ، بل هو هرطقه وتجديف » ومن ثم جريمه عقوبتها الإعدام « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الآخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطامه العمياء هى سمه كنيسة إنجلترا وخصيصةها (٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكية .

ان الكنيسة الأنجليكانية ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تمصها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « اللوديين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكية ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع - Broad Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكدوا على الجانب الأخلاقى ، لاعلى الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحيه ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحه وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هولاء المتحررين

المتسامحين « وقد ر فيهم الإيجاز النسبي في عقائهم (٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تلو تسون ، الذي عينه شارل فسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفة كنتبري (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلو الثمائل (٤٢) » ، ناهض « البايويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسه والغيرة ، وتجاهس فبنى المسيحيه على العقل . وكان يقول « لسنا في حاجه إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمه يتم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده (٤٣) » . ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكون الخدم الروحانيين للوردات المهلين ، بل حتى لبعض مالكي الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضح العامه (٤٤) . ولكن في المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعه الإطلاع والمقدرة الأدبيه حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمى في أوروبا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي في الكنيسه الأنجليكانيه ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يمان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخرية وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتاني بسبب أخلاقياتهم الهينه اللينه الخاليه من التزم . ولكن البيوريتانيين احتملوا في جلد وشجاعه دوران عجه الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصيه بينهم في ذلك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أيه تسويه لا تخل بلاهوته المتقدم . فإياه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتاني حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع في كتاب ماكولى « تاريخ إنجلترا » (١ : ٢٥٣ - ٢٥٥) أنظر لكى « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر » (٢ : ٧٥ - ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكا استبداديا مطلقا ، وحيد عودة الملكية .
ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر .
وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن
أحراق السحرة في سالم ومساوشوست ، وفكر في ربه على أساس جعل
« مولوخ » (اله سامي كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه)
بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجيب باكثر :
« إنهم فئة قليلة من البشر الضائع ، قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحة (٤٤) .
وأكد في عظاته على عذاب الجحيم التي « أوجدها الرب بنفسه » . . إن
تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغي أن يكون شديداً ، لأنه
مظهر الإنتقام الإلهي . إن العقاب رهيب ، ولكن الإنتقام أمر لا سبيل
إلى التخفيف منه (٤٥) » وحرّم باكثر الإتصال الجنسي إلا بقصد الإنجاب
مع حليّة شرعية . ومنذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه
الرواقين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذي على الحضروات ، لتخفيف
من الشهوة الجنسية (٤٦) وقد نفتقر له لاهوته إذا رأينا ، وهو في السبعين
من العمر (١٦٨٥) واقفا في قمص الإتهام أمام القاضي الوحشي الغليظ
القلب « جفري » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم
تتح له أية فرصة للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة
قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا (٤٧) . وأفرج عنه
بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يمانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديبه
القسم أو تخلفهم عن الصلوات الأنجليكانية ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعة .
وفي ١٦٦٢ كان في السجن الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر
بعضهم في السجن حشراً لا يدع مجالاً للجلوس وحرّموا من فرش القش
ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام (٤٨) . ولكن جلدوم ومثابرتهم
وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانونا . وفي ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم (٤٩) ،
وفي ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعة جرسى الشرقية
في أمريكا ، إلى روبرت باركلي وهو كويكرى اسكتلندي ، و « الصاخب »
الكويكرى الغنى « وليم بن ، وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو ابن أمير البحر وليم بن الذي استولى على جايبكا لانجلترا .
قدم وهو وصي في الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الديني الذي
فوجيء في أثنائه لفوره براحة في أعماق نفسه ، وبهالة متألفة
في الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم
القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان
يمكن أن تنم بهذا الاتصال الإلهي (٥٠) . وفي ١٦٦٩ طرد من أكسفورد
وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد
إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب
الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنة إلى فرنسا ليتعلم « المرح
الباريسي » ، وربما اكتسب من هناك بعض السكياسة والأساليب المصقولة
التي تحلى بها ، وفي ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اثم الخدمة في الجيش الإنجليزي الذي
يعمل في إيرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز في
كورك ، وإلتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة
فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة .
وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكريا ،
وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا في تاريخ القانون
الإنجليزي . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فخكم القاضي على المحلفين بالسجن
والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة
الدعاوى المشتركة ، التي أعلنت عدم شرعية القبض عليهم ، وكان في هذا
تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم في إنجلترا . ولكن بن أودع السجن ،
على أية حال ، لأنه رفض أن يخضع قبعته في المحكمة . وأخلى سبيله في الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠)، وقد ترك له دخلاً يقدر بألف وخمسة مائة جنيه في العام، وديناً على التاج قدره ١٦ ألفاً من الجنيهات أقرضه أبوه شارل الثاني وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظائم، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان «القضية الكبرى لحرية الضمير»، (١٦٧١)، وفي إحدى الفترات التي تتمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية، واشترى حصّة في النصف الغربي لما يعرف الآن بولاية نيوجرسي. وصاغ لهذه المستعمرة دستوراً يؤكد فيه على التسامح الديني وسلطة المحلفين في التحقيق والحكومة الشعبية، ولكن الزمام أفلت من يده، ولم تطبق مواد هذا الدستور.

وفي ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلي وجورج كيث القنال الإنجليزي ليبدشروا مذهب الكويكرز في القارة. وأسس جماعة من «كرهيم» ممن حوّلهم بن إلى مذهبه، مدينة «جرمان تون»، في بنسلفانيا، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق. ورجع بن إلى إنجلترا، وأخذ زمام المبادرة في منع الكويكرز من الإضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى «بالمؤامرة البابوية». وكان «خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب» (١٦٧٩) نداءً قوياً للتسامح الديني في أشكال صورته. وفي ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه في المطالبة بالدين، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا. أن بن اقترح اسم «بنسلفانيا» للجزء المتراعى الأطراف الكثيف الأحرار، فالحق شارل الثاني «مقطع» بن «بهذه اللفظة» تخليداً لذكر أمير البحر. وعلى الرغم من الخضوع التام للملك، فإن حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية، وكانت العلاقة مع الهندودودية قائمه على العدل والإنصاف، كما أطلق الكويكرز، وهم يشكلون غالبية المستوطنين، الحرية الدينية. وعمل بن في هذه المستعمرة بجد لمدة طاميين، ولكنه في ١٦٨٤ سمع نبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته. فأسرع بالعودة إلى لندن. وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكاً على إنجلترا، وهو جيمس الثاني، كما صار بن من ذوي

النفوذ والمكانة في الحكومة . ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المتناومة السلبية الذي اتجهه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعالة ساعدت على التسامح الديني في عصر التعمص ، وقدر أحد المذمومين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الديني بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نهبهم في السجن (٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من لجور البلاط وللشرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « في هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذي ينادي بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح (٥٢) وفي ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثة أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر في عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاهم شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بمد اليوم « لأنه من رأيه وقناعاته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره (٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك في التسامح عدد متزايد من الانجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون في رغبته في التخفيف من ويلات الكاثوليك في إنجلترا التي كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية في إنجلترا . وكان الانجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ١/٥ من السكان (٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضمافا عاجزين . ولسكن المملوكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد في إخماد تحوله إلى الكاثوليك (١٦٦٨) وكان في إنجلترا حينئذ ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعي للملك ، وبدأوا يظهرن علنا في جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكية تقام في الدور الخاصة .

وأر هقت انجلترا . وأقام البروتستانت في كل طام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « ميمفيلد » تمائيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جى فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزي ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة (٥٥) ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أى أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا (٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أى صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوى الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم . وأصبحت شيفيلد مركزاً لصناعة الحديد . وسرت في انجلترا حتى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشيغيل الأولاد في الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج دينفو لأنه فى كولشستر وتوتون « لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، فى المدينة أو فيها حولها من القرى ، أمهله والده أو لم يتلق تعليماً ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كمنته يده مؤونة العيش (٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم فى المنازل أو فى حوايت الأسرة . وحدث

توسع في نظام المصانع في النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت في ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، في صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصاً . وكان في جلاسجو في ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل (٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين في التقدم ، وكتب سير ولیم بنی في ١٦٨٣ « في صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الربرك ، فثمة ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفه ومن ثم تخرج الساعة أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد (٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقاً لقانون الغلمان للهنين « الذي صدر في ١٥٨٥ في عهد اليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية في تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات في الأسبوع مع الإقامة والطعام (٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلاً . فكان الأجر اليومي شلناً في المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار في ١٩٦٠ . أما أجور للساكن فكانت منخفضة نسبياً ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع في لندن يبلغ نحو ٣٠ جنياً في السنة (٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها في ١٦٨٥ تعادل أثمانها في ١٨٤٨ (٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ (٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفاً ينعم به ذوو اليسار ، ونادراً ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذي كان عليه جمهور الشعب أمراً عادياً ، ولو أنه ربما كان أشد منه في أخريات العصور الوسطى (٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجري الأرض على أكبر ما يستطيعون من إيجار ، وبأقصى ما يمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدي بهم إلى الجوع والعوز ، وبدلوا قصارى جهدهم في استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والفحص . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تقاوم الحال يوما بعد يوم (٦٦) . »

وفي ١٦٩٦ قدر جريجوري كنج أن ربع سكان إنجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التي تجمع لإغاثة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات (٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يشوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات في إنجلترا (٦٨) .

أما الكنيسة الأنجليكانية التي كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات اللالك ربطا تاما (٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكي الأرض وأصحاب المصانع والتجار والأعماليين . ومن ثم أصحى ، بحكم شعور الزمالة للتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوايين التي تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمحت إنجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القاونية والإقطاعية والنقابية ، في تشغيل العمال والإنتاج والتجارة (٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع (٧١) . إن الأيديولوجية الحديثة لاهريه ، بدأت هنا الآن ، حين طالب اللقاولون

والتزمون للغامرون ، في صخب وغضب ، بالتححرر من القيود القانونية والأخلاقية .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعلا في الاقتصاد الإنجليزي ، وعلما حيويا في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها ، إلى حد أنها ، أي التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة ، يحاكي الإنجليزي لاعلى حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الأيرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من أيرلندا واستبعد الغلال الاسكتلندي ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلندة . إن الرغبة في التوسع في التجارة الإنجليزية وتوفير الحماية العسكرية لها ، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثاني من كاترين براجانزا ، وعلى تجديد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بمجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، بسبب الاتصاف على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى (٧٢) ، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول : « إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها » (٧٣) . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة .

ومدت للشروطات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه ، فالتصمت للمستعمرات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تملن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباي بالمصاهرة في ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (في نيويورك) بحق الفتح في ١٦٦٤ . وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة نشأت طادة « الإكراه » وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه « المزارع » بتقديم الحر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإقلاع ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا عقداً للعمل (٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ - ١٦٤٩ و ١٦٨٨ - ١٦٨٩ إلى تقلب البرلمان على الملك ، حدثت في نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان في إنجلترا في تلك الأيام مئات من « المائنين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض (٧٥) . وكان شارل الثاني يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فليجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونهم منهم في ٢ يناير ١٦٧٢ ، ١٠٥٢٦ ر ١٣٢٨ ر جنياً (٧٦) ، وفي هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث في مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع النجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بعود قاطعة باستئناف الدفع في نهاية العام . واستؤنف الدفع في ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تمهيدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه في ٢ يناير ١٦٧٢ تمهدت بداية الدين الوطني في إنجلترا ، وتلك حيلة جديدة في تمويل الدولة .

ومذبات لندن موطن أصحاب المصارف وأمراء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجى الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية في البذخ والترف ، إن لم يكن في الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بشعاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم (*) أمام أنظار الأقلية ، ورضعت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحمل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيفت بنور ضئيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير القمرية بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تمتج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمزادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجردان (٧٧) » . وكان هناك المتسولون والاصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « العيتى » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاء . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمنستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملسكيان هويت هول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكوخ التى تمتج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تسكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لا يدع مجالاً لضوء الشمس الممتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحالى معروفاً فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفيه غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكله وبناء على طلب الملك أعد جون افلسين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماه لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الأزعاج والحذى
= الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران اللطابخ التي لا يسكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة في مصانع البيرة ومعال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع للملح وعلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تسكنى فوهة إحدى للمداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزجاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شها ببركان اتنه أو بضواحي جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه للمداخن أفواهاها وتنفت القتام والسخام ... أن السامخ للزوك سرعان مايشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التي يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود السكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية (٧٨) .

وأعد ايغلين مشروع قانون للبرلمان الذي كان أقرب منذالاً لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذي يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويارفع سير توماس براون صوت الطب طالياً ، يحذر من : —

« الروائح السكرية التي تنفثها البالوعات العامة ، والأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التي تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال (٧٩) . »

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة في كل عام وما أن تجيئ فترة تتجمع فيها ظروف غير موالية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفي ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون بيز في مذكراته : « أن الطاعون منتشر في أمستردام ، ونحن في فزع منه هنا . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحي ، وفي ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون في لندن ، واثنان في أبريل ١٦٦٥ ،

٩ — قصة الحضارة

وفي مايو ٤٣ ، شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثنا على إبالة ، وأيقنت لندن التي ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذي لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبياً في السادسة ، ولكنه استطاع أن يمي قدراً كبيراً مما تردد في هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون في منزلة التاريخ (٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيو انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وحمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفي يونيو تراحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفي هويتها بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليسد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب (٨١) » .

وزادت النذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلقات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته في يونيو إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يسمم سوء ، ولو أن صيحات التأيب تمالك ضدم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقاباً من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقي رئيس أساقفة كنتربري في مقره في لامبث ، ينفق في كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عوناً للمرضى والأموات . وبقي موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال في « السيتي » ستمائة جنيه أسبوعياً ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقي آخرون وقضى كثيرون نجسهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والملاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التهاؤم والتعاويد التي قد تصنع

المعجزات . وفى ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « فى هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصاً منهم ١٦٠٢ بالطاعون » . وكان حفارو القبور يحملون من يموتون فى الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم فى مقابر عامة . وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالى لندن فى ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفاً ، وهذا سبع السكان . وخف الوباء فى ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً . وفى فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشية إلى العاصمة .

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة اخرى . وكانت كارثة حقاً ، ذلك أنه فى يونيو ١٦٦٦ أبحر الهولنديون فى جرة إلى التيمز ودمرو المراكب الإنجليزية فيه بمدافع ممع صوتها فى لندن . ولكن فى الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، فى حانوت خباز فى بودنج لين ، شب حريق ، أقى فى ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر . ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، مخازن ملاى بالويت والقار والقمب والسكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق فى الحال ، ثم هبت ربح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهه مثل هذا الحريق فى مثل هذا الوقت من الليل . ومن حسن حظ ايفلين أنه كان فى سونوارك ، فأسرع إلى شاطئ النهر .

« حيث شهدنا للمدينة بأسرها وقد اندلع فيها القهب الرهيب بالقرب من اللاء ، فى كل الدور من جسر لندن ، وفى شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران فى كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولام من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لآخاذها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعيول والنواح

وهم يجررون هنا وهناك ، ذاهلين مذبولين . كذلك أحرقت النار السكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء (١٠٠) .

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقل ، التي انتشرت لمدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . يلهول المنظر الأليم المفجع الذي لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت السنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناي ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها في لحظة واحدة وكان صوت اللهب المنذلع وفرقته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والسكنائس ، أشبه شيء بماضفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولاً وميل عرضاً (٨٢) .

وأبلى الملك وأخوه المسكروه جيمس ، كلاماً ، بلاء حسناً في هذه الأزمة ، وجدوا في العمل بأيديهم مع مكافئ النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهياؤوا المأوى والطعام لمن باتوا بلا مأوى ، وأصرروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، بما كان له أثره في انقاذ جزء من المدينة في شماله التيمز (٨٣) . وكاد الحى التجارى أن يمضى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أُنقذ ، ودمر ثلثاً مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول المتيقة ، ولتى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم (٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحو ٥٠٠ ر ٧٣٠ ر ١٠٠ جنيه (٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .
وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة للمطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى مماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحدوا حدوهم لذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمهّل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورسفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارىء للمشاة . وتحسنت الرطابة المحيطة . وقضت النيران على كثير من الأقدار والقيران والبراغيث والجرائم فتخاضت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المهارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ - الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرسٲوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذاً للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسي » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدأ أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت له الرياضيات والليكانيك والبهريات والأرصاء الجوية والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط للمستقيم مكافئاً لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيراً من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة (٨٦) . وعمل بجهد على تحسين التلسكوب وصقل

المدسات وبحث في دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء للمالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل في مجرى الدم في الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis في تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس للشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية للملكية » وهو الذي كتب مقدمة ميثاقها . وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد في التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة . وربما كانت مهارة رن في الرسم هي التي حدثت بإشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس للمساحة فى الأشغال العامة . وسرعان ما وجد فى العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضماء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونا من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المؤلف أو العادى المتعارف عليه . والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المؤلف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التى تبعت السرور والبهجة طادة ٠٠٠ فى نفوسنا ولكن للمعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى (١٧) ، فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى فى العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية آثر العمارة الكلاسيكية على العمارة الفوطية . وفى تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفى ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون فى أكسفورد لأستف جلبرت شلدون ، وهما منذ البدايه ، اتبع مبادئ كلاسيكية . ورفع المسرح الأثرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فتروفوريوس فى قديم الزمان وفيينولا فى عصر النهضة . وساعدت إقامته الطويلة فى فرنسا ١٦٦٤ - ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكية . ولكن إعجاب بهسكنيسه فرنسوا مانسارت فى فال - دى - جراس ، جنح به إلى إضافه شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكركه فان - دي - جراس ، وهو يمد بناء
كنيسة سانت بول .

وطادرن إلى لندن في مارس ١٦٦٦ . وفي أبريل ، بناء على طلب
الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التي ساخت
من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفي ٢٧ أغسطس وافقت لجنة إصلاح
كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى
دمر حريق لندن التاريخي الكنيسة ، وجرى الرصاص الذي أذابته النيران
من سقفها في الشوارع .

أن هذا الحريق الذي أتى على ثلثي العاصمة هياً للعمارة فرصة لم تتح
لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لا تزال كامنة تنفث الدخان حين عرض
رن على شارل ، الثاني مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك
المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق
الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد في ١٦٧٣
نصمياً لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا
بأن التصميم تبدو عليه سيماء معبد وثني ، وحثوا رن على التزام الطراز
القوطي في الكنيسة العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون
الداخل عبارة عن أفواس وجناح من الكنيسة ومكان خاص بالمرتلين ،
وكلها على الطراز القوطي ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة :
مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك .
وكانت النتيجة خليطاً كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض
الشيء بتتويج الجزء الداخلي بقبة تنافس قبة برونسكي في فلورنسة
وميكلاً نجلو في رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها
البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع في طريق التنفيذ لمدة خمسة وثلاثين عاماً ،
فان رن الذي خلف دنهام في تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميماً

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقبورها المستدقة التي جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعة الرياضية . أضيف إلى هذا دار الجمارك في لندن ، والمستشفى في كل من جرينتش وشلس ، والسكنائس الصغيرة في كلية بمبروك في كمبردج وترينتي كولدج في أكسفورد ، ومكتبة ترينتي كولدج في كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكي في قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين داراً نقابية ، وعدداً من الدور الخاصة بل يبدو أنه في الأربعين عاماً الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذي تولاه (٨٨) . واحتفظ رن بمنصبه في المساحة طوال حكم شارل الثاني ، وجيمس الثاني ، ووليم وماري ، وآن . وتقاعد عن العمل في سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل في كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة في سن الحادية والتسعين ، ودفن في كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لا يزال يتجلى في إنجلترا . والسكن . الحفر على الخشب كبان فنا رفيماً . وكان جرنلنج جيبونز معاوناً له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد في المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخيم في كنيسة سانت بول ، والزخارف في قصر وندسور وقصر كونسنجتن وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم في إنجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويشبط من هم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ربلي أعظم رسام لصور الأشخاص في فترة عودة الملكية . وأدرك جون أن الوجه المدروس الذي يرسم في روية ، هو في ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يتبرأ خطوطه ، وفي بصيرة نافذة كشف في ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها في شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثاني على صورة رسمها له ربلي يكون سبباً في انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتي ؟ ياخليه الأمل ،

أذن أنا رجل قبيح المنظر ، ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تسمية عفوية لأمانة العنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريبلي صور الملك الأحق جيمس الثاني ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آرونديل الأرسقراطي التافه المختال . ولكنه حين رسم كرسنوفورن وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها في الوجه ، وعلى بريقها في العينين . قال هوراس وولبول « ربما كان في مقدور ريبلي ، بربع غرور سيرجودفري نلر ، أن يفتح العالم بتفوقه وسموه (٨٩) . وطارق الحياة في ١٦٩١ وهو في سن الخامسة والأربعين .

وكان لى الهولندي ونللى الألماني فارسي الحلبة المرموقين في رسم الأشخاص في عصر آل ستيوارت الثاني . وكان والد لى جنديا هولنديا اسمه فان دراس . (واشتق لقبه هذا (لى) من زبقة كانت مرسومة على داره . وادمندر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر في وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم في هارلم ، وعبر البحر إلى إنجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق في أن يخلف فانديك بوصفه مصورا للأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمسكاته هذه على عهد كرومول وشارل الثاني ، واقتبس لى أسلوب فانديك في اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو في اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال في الحاشية ، من ذلك أننا نرى في قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جون ريانة طائفة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمقامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلهبن ولويدى كير ووال ، تزدهيان بمحملات أندائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابلا (٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل للملاسكى والطفلة الملاسكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصعب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل الى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثاني وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى يبين أنه جبار معتد بنفسه . . يحظى بمنزلة رفيعة (٩١) ، وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه (٩٢) » وحدد له موعدا للقائه بعد ثلاثة أسابيع .

وفي ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة لى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألماني عقد العزم على أن يخلف سيربيتر (لى) في رسم الأشخاص وفي كسب المال وفي الفروسية ، وحقق الرجل برنامجا وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نلر ، آنذاك في الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثاني « مصور البلاط » واحتفظ نلر بهذا المنصب في عهد جيمس الثاني ووليم الثالث الذي منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفري لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادي كيت كات » ذى المسكاة السياسية البارزة (٩٣) ولعشر من النساء الخطيرات المغويات في بلاط وليم (٩٤) . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلهف أى إنسان على الخلود ، حول لمار مرسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم في شىء معين : الأيدي ، الثياب الأشرطة والخطوط الملوثة . وفي بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا في يوم واحد . وشيد قصرًا في الريف ، وتنقل بينه وبين بيته في المدينة في عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته في كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو في فراشه معززا مكرما في سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفي تلك السنة ولد ربنولدز ، وكان هوجارت في السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطى . فى يترعرع ويشقى طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريبا على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ يبين وجه -ود العذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثه من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق (٩٥) ، وكتب يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا .

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته . قدما يذكر
أسلحته (٩٦) وكل إنسان ورد ذكره في مذكراته ، كان يعزف ويغنى .
وكان من القضايا للمسلم بها عنده أن أصدقاؤه كان في مقدورهم أن يشاركوا
في الغناء (٧) ، وأنه هو وزوجته وخادماهما كانوا يغنون في حديقته
غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ
ليستمعوا إليهم .

وفي الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون .
واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا . وسرعان ما جعل الناس يدركون
أنه كان يهذب الألحان الرخيمة المبهجة الواضحة التي لا تحسب الرياضيات
تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلمت في الكنائس
الرسمية . وكان الأرغن الذي صمم لكنيسة سانت جورج في وندسور ،
وللسكاتدرائية في أكستر ، من بين عجائب الدنيا التي أحدثت دويا في ذاك
العصر . ولكن حتى في جماعه المنشدين في الكنيسة حل محل الوقار والرهبة ،
هروض مسرحية من فناني والآلات المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثاني
وجيمس الثاني بإعداد الموسيقى للشعر الغنائي وحلقات الرقص التي تقام
إحتفالا بالمناسبات الملكية . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجره
وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعازفون الانجمايز يرتزقون
من جديد .

وفي ١٦٥٦ أقتنع سير ولیم دافانات حكومه الحماية لترخص له في إعادة
افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفي « حفلة
الأيام الأولى » التي مثلها لم يسكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة
من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبها الموسيقى . ولكن في العام نفسه
عرض دافانات في مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجمايزيه
« حصار رودس (٩٨) » ، ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ،
عوق هذه التجارب . على أنه في ١٦٦٧ عرض دافانات المغامر ، في صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التي زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا في تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت في معظمها نتاج وراثته الاجتماعية — أى بيئة سن المراهقة . فـكان أبوه رئيس المرتلين في وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحننا وكاتب مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف في شبابه ترايم دينية ظلت تسمع في الكاتدرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثني عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثاري ، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترايمه والكانتاتنا (قصه تشرحها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقة التي ألفتها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقية باءت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان (٩١) .

ولما كان بورسل منهمكا في عمله ، عازفا على الأرغن وملحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس »^(٩٢) قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، في إحدى مدارس البنات في لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك في المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالوضوء والصخب مثلنا اليوم أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(٩٢) في الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاج وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاج بعد سقوط ترواده ، ووقعت في شرك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين فادرها .

أتوسد الشرى « فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر في النفوس ، من الخمان في تاريخ الأوبرا بأسره . »

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التي كتبت كلماتها دريدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطة إلا إرتباطا يسيراً بجو الرواية أو أحداثها ، مثلما أن الرواية لم يكن لها صلة وثيقة بمصر آرثر كما نراه في مالورى وتينسون . وبعد ذلك بمام واحد ، أحرز بورسل تقدماً أكثر في موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكليف مجهول الاسم « لحلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجة ، وضاعت الألحان ، ولم تسكتشف إلا في ١٩٠١ وهي الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفي ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائية الكثيرة ، أحكاما واتقاناً ، في الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هي « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحه ١٦٩٤ . وكانت تمزف سنويا في الإحتفال « بأبناء رجال السكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت في هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تمزقان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة ماري ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيباً مشهوره « ياربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفي سنواته الأخيرة اسهم في الموسيقى الثانويه لروايه دريدن « الملكة الهندية » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانييل ، وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، في ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلاً من ترسيخ جذورها ثانياً في القربة الانجليزية ، حدثت حذو الملك ، فانحنت إجلالاً وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الإيطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس ، غزت الأوبرا الإيطالية مسرح الأوبرا الانجليزية ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل في ١٦٩٠ « ان للموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه في المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ - الأخلاق

فلنبدا لفورنا هنا بالتمييز بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فلاستهتار الجنسى الذى ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وماحولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه للمعمورين أفضل منها في عصر الزباث ، لأن النظام الاقتصادى أبقاهم على اعتدالهم وبعدمهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التى يتردون بها فى مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوزع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن فى لندن ، وبوجه أخص ، فى الحاشية للملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناتج عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاحب غير برىء . أما الشباب الارستقراطى الذى اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان فى فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه فى المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التى عانوا فيها عنت الظلم والحمرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولاهوتهم ومبادئ الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجروء معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذى يوفق كل التوفيق فى هذه الرذيلة ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال فى رواية وتشرى لى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانه فقدت مسكاتها

واعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين .
وصار الوفاة موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كثيرون أغبياء
مزعجون يملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد للمجد
هى الأنجليكانية المهدبة التى يحضر فيها للولى (رب العمل أو مالك الأرض)
صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذى يزرع الخوف من نار الجحيم فى
نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، فى إيجاز مناسب ، من جانب المنصة
التى يجلس إليها للولى أو سيد القرية . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن
يكون المرء ماديا على مذهب هوز ، لامسيحيًا مثل ملتون ، الأحمق
المجوز الأسمى الذى نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار
الجحيم التى بولغ فيها فى العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات
للمالكين . أما اللجنة فى رأيهم ، فهى ماثله دوما فى مجتمع متحرر من الثورة
الإجتماعية والسكبت الخلقى فى ظل حاشية وملك ضربا المثل وتقدما الركب
فى الفسق والتجور واليسر واللهو والعبث .

وكان نعمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط للملكى ،
وكان كلارندن مثلاً رجلاً ذا مبادئ وسلوك قويم حتى سارت ابنته فى طريق
الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أول سوثمبتون الرابع
ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين
نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة
العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فانفو والآنسة هملتون ، أو السيدة
جودولفين فيما بعد ، فى التمسك بأهداب الفضيلة . وبقينا كان هناك أفراد
غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم فى ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعان
عن نفسها .

وكلما علت المسكنة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ،
شقيق الملك ، الذى يبدو أنه بز الملك فى حصته من الخليلات العشيقات (١٠١) .
وبينما هو فى المنفى تسلسل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاة ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سرآ . وعندما سمع أبوها (كلارندون) نبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرته حياته (١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خليله الدوق لزوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا » فينبغي على الملك أن يزوج بالمرأة في السجن فوراً ، وأن يصدر في الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه . وهز الملك كتفيه استهجاناً للموضوع على أنه هراء لاغناء فيه ، وكأنه يسمع جمجمة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضي القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث في صرامة وتجهم ، على الطريقة الرومانية ، ليعوض عما ثار من ريبه في أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان في ٢٦٧١ ، في سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تمنأى مشا كل الأمور ، من أرابللا تشرشل عشيقه له ، وهي التي إرضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى في مناصب الجيش . ورغبة في معاونة آن وأرابللا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستاء إنفيلين بصفه خاصه من من سلوكة الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦) (١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى السكثلكة من خلقه شيئاً . فسكان كما كتب بيرنت « دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوماً أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له المشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه (١٠٤) » ودامت علاقته بأرابللا نعمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقية بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من ماري مودينا .

وينبغي علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتعلى بمناب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه - وهو أمير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد في التغلب على سوء النظام والفساد في البحرية ، نتيجة لفضالة الأجور والمؤن التي تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة في اشتباكات مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة في مقدرة واطلاق . ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد السكاف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود ، وعدوا غنيدا لا يفتقر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقدا الذكاء . وكان يأبى النصيح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثاني في البلاط ، جورج فليبردوق بكنجهام الثاني . وكان ابن محظية جيمس الأول التي لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول في الحرب الأهلية ، ومع شارل الثاني في وورستر ، وعينه الملك الذي استرد العرش عضوا في مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر في البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب « ملهارة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه وثرابه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس في عبث مخز شائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتعدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هي في زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المباراة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وطانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذي كان لا يزال مضرجا بدم زوجها ، وطادا ظافرين إلى قصر الفريسة (١٠٥) . وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يجالسه الخزي والعار .

وكان ينافس بكنجهام في المسكانة والذكاء والقصف والعريضة والانحلال

جون ولوت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، وإلتحق بالبلاط فى السابعة عشرة . وأصبح المشرف على حجرة الملك . وكان فى حاجة إلى المال وهو فى سن التاسعة عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعدته شارل عن الحاشية وأطاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه . وكان روشستر - مثل بكنجهام - خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنسك فى زى جمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفى فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به . وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم . وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرطان ما قصدت إليه سيدات البلاط لملاجهن . وعجز أوثك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه (١٠٦) وفى كل هذه التنسكات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخر والفجور . وكان يفخر بأنه كان ثملا لخمور المسدة خمس سنوات بلا انقطاع - ومات فقيرا نادما فى سن الثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولوت ، حتى أن يبهر نفسه ، وهو غيرها والزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة (١٠٧) » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، وإسكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحسبها النساء الحائثات بالعهد اللأئى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون للمرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى اللواهب ،

والقورداث الشبان الياقمون خلو من الذكاة والفضنة ، و . . . ولم تعد للروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلا من قبل (١٠٨) .

وكان من الأمور للسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تموزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم (١٠٩) . إن مذكرات كوت فيليبرت دى جراموت التي دونها بالفرنسية أخوزوجته ، أنطوني هلمتون ، كات ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمفرورين المختالين ، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رأى الكونت في منفاه السعيد في بلاط شارل الثاني .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحية ، ثم كما يقسول بيرنت « يطوف للملك والملسكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويمسحون ويلهون في صخب فاجر (١١٠) » وكانت المراهانات على مبالغ طائلة . يقول ايفلين « في هذه الليلة ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هي العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه في القاعة الخاصة ، . . . وخمس مائة جنيه . (وكان قد كسب في العام الماضي ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللب اقبالا شديدا (١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية في القمار والدطارة . وتحدث ايفلين عن شباب أنجلترا الفاسق الفاجر الذي فاقت إلى حد كبير دطارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت (١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة في الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودوى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان في إنجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسى الشاذ (١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعة ، منها زواج دوروتى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروتى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا محييا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيبين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحدا يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل » (١١٤) . وكتب سوينفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدثت عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب للتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك (١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضئعة ملائمة مريجه (١١٦) » .

ومن الناحية النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعة فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه (١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شكوا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لا يذعنون للأباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوه » (١١٨) . وكان الغلاق نادرا ، والسكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرت — مثل لوثر وملتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، والسكن الملك رفضها ، ثماشيا للتمادى فى اذلال زوجته (١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

عمرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازاً للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقاً للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهداً ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزيف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهرة ، أحياناً مع دق الأذنين كليهما بالمسامير في آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم في يوم عطلة ، ليشهدوا سجيناً على حبل المشنقة . وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحمراً . ولم تكن في إنجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص في السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعمون ملجأً في إنجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريباً يعتمد إلى الفش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد في كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى المادى . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحة الفساد في مختلف الأعمال ، في السياسة وفي البحرية وفي بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت في اسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال ، وزورت في حساباتها ، وتقاضت من

الحكومة أثماناً طاحنة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التي يقرها البرلمان لجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفي الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والمعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلي يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم » (١٢٤) . وأرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبي وسندرلند — أنزوا في سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعاً لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الأجنبية (١٢٥) وفي القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفي ١٦٧٥ قدر أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثاني ، والثلث الباقي من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد الماهل الفرنسي أنه من الميسور أن يرشو الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فحكم من مرة تسلم أموالاً طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران في فلوك فرنسا في السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الإنجليزي أكثر المجتمعات استهتاراً وفساداً في التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تموض عن النقص في الأدب — كما في فرنسا — ، وأن تضفي كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما تجمل به الملك من ظرف ولطف وبجامة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة في إنجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفي لندن — كما كان في باريس — استقبلت السيدات الرجال في الفراش ، فكان هناك ضراحة

منعشة واحتقار للفنفاق في الأدب وفي المسرح وفي البلاط . ولكن العراحة أطلقت فيضاً من الخشونة على المسرح وفي الحديث اليومي . وكانت البذاءة في إنجلترا بغير مثال . وفي هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ؛ حيث كان لا يتجاوز في السباب « عبارته المفضلة Odds Fish » وكان البيوريتانيول الباكون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجموا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الخلف

وبن الرجال النساء في الأزياء الغربية ، من الشعر للمستعمار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الازيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعرهم قصاً قصيراً جداً ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قعر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا في الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاختفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريباً يملقون اللحن آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنه الضخم . وجعل يبيز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورنى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاماً أن يقص لينفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاماً أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل في أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المسكشكش للمتييس الذى كان سائداً في عهد إليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلها الصدرية والمعطف . وبوصلت الصدرية على آية حال إلى ربة الساق . وكانت تشد إلى الجسم يمزاج . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين . وتدلّت السيوف إلى جواب الأرمستشاراطيين أو الأغنياء . وساعد الخملات والمخرمات وبالأشهر نطقها بالأهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهي غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقاً لآخر طراز) فكان يضمخن شعورهن بالمساحيق والمطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباهن ، وزدن عليهن خصلات مستعمارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جباهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (وهي قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاختفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويزدى كيرووال أمام الرسام لى ليصورها وأحد نهديها طار تماماً ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مفر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فسكات المرأة بالفعل شيئاً معقداً استخدم الإنسان كل براعته في تشكيله وصنعه ، حتى صورتها إحدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالى » (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشعرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعن عن نفسها كل ما عليها لتضعه في عشرين صندوقاً . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالي ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة (١٣٠) .

وكان التبذير واجبا حتميا ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد ايفلين نحو خمسين وكان لدى ايبز طبّاخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخدمة . وكانت وجبات الطعام مرفوعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبر في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والفرارة
بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ،
ونفذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث
دجاجات ، واثني عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكهكة ضخمة
محموشة بالمربي والفاكهة المطبوخة (تورته) ، ولسان بقرة ، وطبقا من
السبك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجبرى) والجبن » .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة . وكان للطبخ
إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون
الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت
(أوروبى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ، فقد ذهب تفكيرى
إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون للغفرة لتقديمهم طعاما رديئا (١٣١) » .

ولم يكن تناول للمشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان
الناس ، حتى الأطفال ، يشربون للماء (١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منلا
من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ،
البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم
الناس على الحانات مرة واحدة في اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع
الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن
يستورد من إقليم مخا فى البين . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون
زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جايبكا .
وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ،
على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى ١٦٥٢ ،
وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى (١٣٢) واتخذ كل فرد مهما
كأحد المقاهى محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأبياء والمخازي . وحاول شارل الثاني أن يحد من انتشار المقاهي ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهي نشأت الأندية التي لعبت دورا في سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلقت المقاهي عن الأندية التي ظهرت متأخرة عنها ، لا لجرد أن القهوة كانت هي المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقي تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (في المقاهي) . كما أن حرية الكلام في إنجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاي إلى إنجلترا من الصين حوالي ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالي الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن في الحياة الإنجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب يبيز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاي (١٣٤) . وفي نفس الوقت استورد حب الكاكو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالي ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى الكاكو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبوباً مألوفاً في فترة عودة الملكية ، وكان يقدم في كثير من المقاهي .

وفي تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما في ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، في أنابيب طويلة دوماً . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة في التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة طادة « السعوط » في تلك الأيام ، أي نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فقد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو ، واستمتع القراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشموذة والملاكمة والسحر ، والغمس الموسرون

في الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان . وظل شارل الثاني يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التي لا تزال منظرًا محببًا إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ في الأمة بأسرها ولأول مرة في ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، ففي تلك السنة خطط حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرطان ما أصبحت منتجماً أنيقاً على أحدث طراز . وافتتح شارل الثاني للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها في الامسيات الظريفة ، عليه القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى في مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — في عربات تجرها الجياد ، التي كانت قد بدأت تؤدي خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس في ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب في مواعيد منتظمة في ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء في عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا مجرد العرّض وحب الظهور ، ولكن لتجر العربة في الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية في بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبي الطريق ، بالخليط العجيب من نزلاتهم من سائقي العربات والمسافرين والمهثمين والبائعين واللصوص والبغايا ، كانت تهيء السبيل أمام هؤلاء جميعاً للاسهام في الأدب في انجلترا وهكذا كانت تشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة بالحيوية ، التي عرفها دكنز في شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتنال في شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولسكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — في التخفيف من ويلات الكاثوليك الأنجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضي الوطيفة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الأنجليزي لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استلوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أمولا طائلة ، وكان شوكة في جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اطانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليجار كية الأرض والمال التي تحكمت في البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينهبى أن تستخدم في شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التي أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل في ١٦٥٢ هي التي عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وتقوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة فيما ايثار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب في الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى (١٦٣٥) .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزي ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفي الوقت الذي جرى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك إنجلترا مفلسة ، وفي أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكاً ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاذ ، فإنه تحى جانباً من أسطوله في «مدواي» ، وسمح للبحارة بالاستئغال على السفن التجارية . فما كان من «دى روتر» إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواي ودمر معظم السفن الإنجليزية التي خلت من الرجال . ويقول بيبر أنه في تلك الليلة « كان للملك يتناول العشاء مع ليدي كاسلين عند دوقه مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة (١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولسكن الهولنديين كذلك رغبوا في الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أثاروا على إقليم فلاندرز . وأنت معاهدة بريدا في ٢١ يولييه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التي توالى على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا في خلعهم . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذي طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه في إنجاء التسامح الديني ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحاً بمحاكمته بتهمة خضوعه للدليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منقاه بتدوين أجل مؤلف تاريخي أخرجه الأدب الإنجليزي حتى ذلك اليوم . ووافته المنومة في روان

(على السين في شمال فرنسا) في ١٦٧٤ ، وهو في الخامسة والستين .
وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون :
توماس كليغورد ، إرل آرنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلي (الذي
أصبح على الفور إرل شافتسبري الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف
الأولى من أسمائهم لفظة « Ci bal » التي سميت بها الوزارة الجديدة .
وكان كليغورد يعلن عن كاثوليكيته ، وكان آرنجتون ميالا إلى هذا المذهب ،
وكان بكنجهام خليعاً ماسقاً ، وكان شافتسبري متسامحاً شكاكاً ، أما لودرديل
فكان من « رجال الموائيق » السابقين ، وهو الذي فرض النظام الأسقي
بالتار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم
أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه
والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجديد الملكية المطلقة وإقامة
الكاثوليكية ورفع شأنها في إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذي
سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكي جيمس ، وتبادل الرسائل مع
زعيم اليسوعيين في رومه ، وأستقبل سرا مندوباً بابوياً قدم إلى لندن من
بروكسل (١٣٧) . وفي يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه وكليغورد وآرنجتون ولورد
آرندل أنه يرغب في المصالحة مع كنيسة رومه ، وفي إعادة كل الإنجليز
إلى المذهب القديم (١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوماً عن أن تحضه على
أن يعلن للملأ في جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكاثوليكية .

وفي مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفي محيطها
عدد من الدبلوماسيين الدهاة ، ليعاوناها على ربط شارل بسياسة فرنسية
كاثوليكية . وفي أول يونيو ١٦٧٠ وقع كليغورد وآرونديل وآرنجتون
باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل
١٥٠ ألف قرانك عند إعلان إرتداده إلى الكاثوليكية . وتزويده ، عند
الاقتضاء ، بستة آلاف جندي تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على
شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهدلندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر في أن يرث أسبانيا (١٧١٦) . وامعانا في خداع البرلمان والشعب في إنجلترا ، بعث شارل بدوق بسكنجهام إلى إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت في ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تمهدت فيها إنجلترا بالاشتراك في الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاما في اعلان تحوله الى الكاثوليكية . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة في ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذي يؤيد الكاثوليكية ويميل إليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر في ١٥ مارس ١٦٥٢ ، اعلان التسامح الثاني ، « لذوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل « بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، في الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفي الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أو دعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان في المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من السكويكرز . وأرسل زهماؤهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعد المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التي منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العهد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » يجتمعون علنا في لندن . ولمدة عام كامل نعمت إنجلترا بالتسامح الديني أو شقيت به .

وفي ١٧ مارس ١٦٧٢ شذت إنجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٠٠٠ ر ٢٥٠ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك للبرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعان مجلس العموم « أن قوانين العقوبات في المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الامة نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح
ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى إنجلترا صفا واحدا كالبنيان
المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء
اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذعن شارل ، وألغى
الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء
معاهدة دوفر السرية أو أشتتموا رآئحتها ورغبة فى الخيلولة دون نحول الملك
الى الكاثوليكية ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه
يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى إنجلترا أن يقسموا علنا
على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخمر الى
جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية
وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ،
وأوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافتهسبرى
فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب
الريف » الذى تاهض ، بمنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان
يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « السكالب » (١٦٧٣) . وأصبح
أرل دى كبير الوزراء .

واعنزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة
ضده بهض الشىء ، أنه على الرغم من أن زوجته الاولى إرأتضت الكاثوليكية
مذهبا من قبل ، فإن إبنتها - الملكة ماري والمملكة آن فيما بعد - نشأتا
على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من
أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة
مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد
أن تنشىء أولادها على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان
مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط إنجلترا على الحرب ضد اللقاطعات للتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك إنجلترا كان كاثوليكيا لأنحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا في تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التي لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية في القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزمية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير ولیم نيميل في توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفي ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التي أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبري وغيره من زعماء المعارضة أسسوا في ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعاية دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذي زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفي ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories* . وبدا للملك شارل أن شافتسبري « أضعف الرجال وأخبثهم » (١٤١) . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحي هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح أن هويج انتصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم تصبى من الاسكتلنديين نشطت في مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهي لفظة إيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيسى أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة . (١٦٨٠) (١٤٠) .

عقليته تافهة (١٤٢) ، ولكن جون لوك الذى طاش مع شافيتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناظر باسل جرىء عن الحرية للمدينة والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالرهوية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لاعلى الوحى) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانتته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألتته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يعصمون عنه قط » (١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشيء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من ماري البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فإن ماري سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها - قلعة البروتستانتية - كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليسكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه (١٤٤) . ثم قبل - أو تظاهر بقبول - التحول إلى الكاثوليكية . وكان قد درس فى السكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أوامر حيث فصل أيضا . آخر الأمر (١٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السريفة لغزو انجلترا . واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن اوقشت فيه

وسائل قتل الملك . وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم
مشترون في المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بلاسيس .
وعندما أضاف أوتس أن بلاسيس هذا كان سيمين قائدا عاما لجيش البابا ،
ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بلاسيس طريح الفراش بداء النقرس .
وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا في الحصول على مكافأة ،
وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض
الصدق في الاتهامات ، واستدعى أوتس ليمثل أمامه في ٢٨ سبتمبر . وخشى
أوتس أن يزج به السجن ، فقصده إلى قاضي الصلح سيراد موند برى
جودفري وأودعه اعترافا خطيا سقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا .
وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار
البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذي
كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك .
وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التي لم
يكن لديه متسع من الوقت لاحتراقها أوضحت أن كولمان والاب لاشيز
فسيس لويس الرابع ، تبادلا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل
ولويس) في أن تصبح إنجلترا كاثوليكية في أسرع وقت وفي هذه الرسائل
اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء
البرلمان إلى جانب قضية الكتلسكه ، ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون
ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تتلق مثلها منذ نشأتها ٠٠٠٠ تلك
هي تحول ثلاث ممالك . ومن ثم ، فربما كان في هذا القضاء التام على هذه
الطريقة الوبيلة (١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حسدا بالمجلس إلى
الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التي وصفها أوتس ، وربما كان
شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة
حقيقية بشكل ما .

وفي ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحي . وبات من الواضح أنه قتل . بيد ضللاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقتة معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ما جاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعترىها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرا فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيفة وتسلح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويت هول . وانخذ الحراس أما كنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرده الكاثوليك من مجالس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمة » وكافأه بتخصيص مباح سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويت هول . وسرمان ما ازدحت السجون باليسوعيين والكهنة غير المنتسبين إلى رهبينات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذى ظهر ، مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحة اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكة تبدي موافقتها على قتل زوجها باسم ، بيد طبيبيها الخاص . وهنا أخذ شارل بهذه الكذبة الصارخة . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجالس العموم أمر بالإفراج عنه ، والقبض على ثلاثة من خدم الملكة . واقترح على اصدار بيان يطالب

بجزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفي ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علماني آخر ، وثبتت إداتهما وأعدما . وفي ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهيئات . وفي ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفري . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثني عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففي ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن داني كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إطانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملصكي بالاعدام ، فحل ، في ٢٤ يناير ١٦٧٩ « برلمان الفرسان » الذي كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أي أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذي اجتمع في ٦ مارس ، كان في عداوته للكاثوليكية وللملك ، أشد إندفاعا وتمحسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم داني بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه في سجن لندن ، حيث قضى فيه ، في هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم ثمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضواً ، بينهم — رغبة في تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبري وجورج سافيل ، مركز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبري رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأي كاثوليكي بمقعد في البرلمان أو بتولى منصب قيادي يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين في المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية (١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياح وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية . وفي ١١ مايو قدم شافنبري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاد (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك في وراثة التاج الامبراطوري لهذه المملكة » . وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في ٢٦ مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال : بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أي سجين ، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة ، وألا أطلق سراحه . وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التمسفية . وفي ٢٧ مايو خشي الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فعمل البرلمان .

ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابوية الذين إنهمم أو تس ، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة فاضية ، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩ ، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجوع المتعطشة للدماء خارج المحكمة ، أدانوا كثيراً من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود ببعضهم ببعض . وهب اليهود المزيقون الذين أغرام ما أغدق على أو تس من مكافأة ، وكأما هبوا من مرفدهم ، وأقسموا بأغلظ الأيمان على ما يؤولون : فروى أحدهم أن جيشا من ثلاثين ألفا كان قادم من أسبانيا ، وقال آخر أنهم وعدوه بمخمسائة جنيهه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك ، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل (١٤٨) . ولم يسمح للمتهم بأي محام أو مستشار قانوني . ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة . وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته (١٤٩) . وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانوناً قديماً كان معمولاً به في عهد اليزابث : وهو أن وجود أى كاهن في إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول في وجوه شهود الدفاع استهجاناً ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهلملون فرحاً عند إعلان الحكم بالأدانة (١٥٠) .

فت كل هذا في عضد شارل ، وكان إمتحاناً قاسياً للملك الذي غمرته يوماً بهجة والفرح ، والذي رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تمنى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والاردراء وينجى . وفي ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضاً خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليغا كس جيمس من بروكسل ، والسكن زعماء الهويج أمروا البيش بالحيولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونتوث ولورد رسل ولورد جراه ، على أنهم - في حالة وفاة شارل - ، سيمتصون عصياناً مسلحاً لمنع أخيه من ارتقاء العرش (١٥١) ، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكراً ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التي ساورت حتى أعدائه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقي العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكان طبيب الملكة . في شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه في المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض في الأقوال . قاضى القضاة سكر وجز الذي سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك عنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويسكان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع في مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مسانדתه . وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم في حركة الارهاب التي قامت ضد الكاثوليك (١ يوليه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى
عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا
إلى أنه لم يسكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن .
ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم
تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ،
بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز
الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ،
ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في إرتقاء العرش ، ويستخدموا كل
الوسائل لتدعيم الكنيسة ديننا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن
كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان
شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتدخل
عنها قط ، وظل مصمما على أن يمتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون
ملكها عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شافتبسبري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف
كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين
الأب لاشيز ، وأقرها (١٥٢) . وأحس شافتبسبري بأن ارتقاء جيمس عرش
إنجلترا لا بد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن
يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من
بروتستانية قد ينجب منها ابنا بروتستانيا . وأبي شارل أن يدع كاترين
دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافتبسبري
وحه شطر دوق مونموث الابن غير الشرعي للملك ، الذي لم يخفر قط لأبيه
خداعه وابعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافتبسبري
غكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسى والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافيتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس الخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فاتموا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ طأ دته الطامأ أينبة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » نقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى السكائوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافيتسبرى المجتمرا إلى حرب أهلية ثانية (١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيسكوت ستافورد وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضحي شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يعول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

هشر . وارتضى أن ينظر في شيء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا
العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه (١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات
عن اطبات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولسكى
يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارئ فيها ، فإنه ، أى الملك أمر
باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع
عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حامزين السيوف والمسدسات
رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم
فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل
المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية .
أما الرأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد
تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية
دفاعاً مجيداً عن حق جيمس الكاثوليكى فى ارتقاء العرش . وعندما حاول
شافتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين فى ميثاق ثورى (١٥٥) ،
أمر شارل باعتقله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم
من أنه كان آنذاك مريضاً بدرجة لا يسكاد معها يقوى على المشى ، فإنه انضم
إلى دوق مونموث فى ثورة علنية (١٥٦) . وأمر الملك باعتقالها كليهما وهرب
شافتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١
يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولسكنه حاف وراه صديقه
لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يسكتب لها لبض الوقت
التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكن لم يغتفر قط المحلفين فى لندن
تبرئتهم لشافتسبرى . والآن وقد تحول الملك انشوان إلى شخص آخر ،
وكان متطرفاً فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التى
ترعت دها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التي هيأت الأجهزة البلدية الخروج على
الارادة الملكية ، ووجد بالفعل في هذه بعض النقص والخلل من الوجهة
التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديدة تنص
على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين
ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرب السكلام
وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين -
لا السكاوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفي
اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدأ أن انتصار حقوق الملك
على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة
الكبرى كان واضحا أنه ينبغي التضحية بها في نكسة أو رد فعل تؤيده أمة
تخشى تجديد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين نخلي
عن شافتمسبري ، وأنحاز بحكته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب
الملك ليكون في خدمته (١٦٨٢ - ١٦٨٥) فكان حامل الأختام الملكية .

وقام أتباع شافتمسبري بمحاولة أخيرة . ففي يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق
مونتوث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرون سدن
في دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطوير
جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . ووارد سدن أمل التقدم
إلى خطوة أبعد ، وهي إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة
سيرفيليب سدن « رئيس الغروسية » ، وحارب في صف البرلمان أثناء الحرب
الأهلية وجرح في مارستن مور . وعين عضوا في اللجنة التي شكلت المحاكمة
شارل الأول ، ولسكنه رفض العمل بها على إعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة
سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه في القارة حين طادت الملكية ، فظل بها ،
مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدير المؤامرات ضد شارل الثاني . وفي الحرب
الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على
الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة في إنجلترا إذا أمدهت الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان (١٥٧). وفي ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ،
وبقي في إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج). وفي
كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذي كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا في
١٦٨٨) دافع سدني عن المبادئ شبه الجمهورية ، واستتبك لوك في مهاجمته
دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب في محاكمة الملوك
وخلعهم . ومن الواضح أن سدني ورسل ، كليهما تسلما أموالا من
الحكومة الفرنسية التي كان يههما أن يظل شارل مشغولا بمشاكله
الداخلية (١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد
سباق الخيل في شهر مارس في نيوماركت . وكان لا بد له ، لدى عودته إلى
لندن من أن يمر « براى هاوس » في هودزدون في شمال المدينة ، فتقرر
أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق في هذا المكان ، ومن ثم يمكن
أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حينئذ أو ميتين . ولكن في ٢٢
مارس شب حريق في ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر
بأسبوع ، وحاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى
أحدهم افتضاح الأمر وادده الأمل في العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة
(١٢ يونية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوانه . واحتج
مونتوث بأنه بريء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب
فيما يقول ، فإنه ألغى أمر اعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم
(٢٩ يولييه ١٦٨٣) . وانتحر اسكس في السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له
أن يقنط من الرحمة ، فإني مدين له بحياته (١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من
أجل شارل الأول . وشتق عدد من صغار المشتركين في « مؤامرة راى
هاوس » وأخذ سدني بجرم لم يقيم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ،
ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) .
وكان شعاره « يدي هذه هي عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفنا

ذا حدين • ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك
للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء (١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية
قائلا أنه في سلام مع الله فعلا •

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية، ونعم ، مع جهدهم ،
بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت في عهده ، أما الآن ،
والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسي ، فقد ركزت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة
ونظامها ، ولو كان معنى هذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » •
وغمرت إنجلترا لشارل أخطاه ، حين رأته ينهار ويدبل قبل الأوان •
واتفقت معه ، بعض الشيء ، على أن الحكومة الانتخابية - لا الملكية
الوراثية - مدعاة للاضطراب والهرج الذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما
يحين موعده • واحترمت فيه إخلاصه لأخيه ، حتى في الوقت الذي حزن
فيه لنتيجة هذا الإخلاق ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى
للأسطول ، يتعقب أعداءه ليشأر منهم • وفي يناير ١٦٨٥ رفع جيمس
دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه •
وكسب جيمس القضية • ولما كان أوتس عاجزا عن الدفع فقد أودع السجن •
وقال شارل في حزن بالغ « لست أدري ماذا سيفعل أخي عندما ينتهي
الأجل وأفارق الحياة • أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتي ليضع تاج الملك
على رأسه ، أن يرغم على العودة من حيث أتى • على أني سأعنى العناية كلها
بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أمل أن يحتفظ لها بهذا السلام
لأمد طويل • ولكن هذا يثير كل مخاوفي ، ولست أومل فيه كثيرا ، بل
لا يكاد أمل يدور بخلدني أنه سيمتحق (١٦١) » • ولما اعترض جيمس على
تحويل شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدى
من روعة : « لن يقتلني أحد ليجلسك أنت على العرش (١٦٢) » •

ولابد أنه اعترض على الأطباء • فإنه في ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة
تشنج واضطراب شديدة ، شوهدت وجهه ، وجعلت فيه ، يرفى ، وأجرى

دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة .
ولسكن مرافقى للملك استدعوا ثمانية عشر طبيباً آخرين ليشرحوا الداء
ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب ألیم ، استسلم للملك للحملة التى
جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أورده ، ووضعوا كؤوس الحجام إلى
كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا
على باطن قدميه لصوقاً من القاروروث الجمام . وقال مؤرخ طبيب
« ولكى يزيلوا النزوات من عنقه نفخوا فى أعلى خياشيمه الخريق (وهو
عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنتيمون
وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعدداً من الحقن
الشرجية فى تعاقب سريع (١٦٣) » .

ونادى للملك الذى يخطر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن
يدرك أنها جاثية فى أسفل الفراش بذلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض
الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه
رجاه أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهناً كاثوليكياً أجاب
« نعم ، نعم ، من كل قلبى (١٦٤) » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلتون
الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد
أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعترافه
بالمذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطاياها ، وعفا عن أعدائه ،
وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحاتاً تاماً بالزيت المقدس ، وتلقى
الأسرار المقدسة . وطلب الصفيح والعقوى ، بخاصة من زوجته ، ولكنه
كذلك أوصى أخاه خيراً بالسيدة لويز كبير ووال وأبنائه (منها) « لاتترك
تلقى المسكينة تتضور جوعاً (١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل
هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت (١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكاً .

الفصل العاشر

الثورة الجليلية ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ - الملك الكاثوليكي : ١٦٨٥ - ١٦٨٨

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة (١) التي رسمها فانديك في اللوين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البريء الحبي سيقضى قضاء مبرما على أسرة ستيوارث ، ويسكل آخر الأمر ، في « الثورة الجليلية » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن في الصورة التي رسمها ريلي (٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان المشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لا ينثنى . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا قاجما ، وفيه ، وكما يحدث في كل التراجميات أو المساسي الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثاني ، فسكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضيه ، في النشاط الحكومي والإداري ، والاعتدال في الإنفاق ، وفي ارتباطه بكلامته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتمر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقة مع آخر عشيقاته كاترين سدنلي . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها المطام على

خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بهرر عليها ثانية فإنه لا يملك فسكا كما من سلطانها عليه (٣) . إن الأسقف بيرنت الذى ساعد على خلعها ، حكم عليه بأنه « صريح مخاص بطبيعته ، ولو أنه فى بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أنسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى (٤) » وكان مقتصدا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيا بالشعب فى موضوع الضرائب (٥) . إن ما كولى بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه نحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لايل كاثوليكيًا معتدلا ، لسكان عصره عصرا زاهرا مجيدا (٦) » .

وتفاقت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متمجرا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلّة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له اللزاج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العمليّة لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى إنجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استنراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الإنجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حيه فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكي ، يميل . طاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطالى . ان إنجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى وانفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً : أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك ، وسندرلند وزيراً ، وهنرى هايد (أول كلاروندين الثاني) حاملاً لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفي أول خطاب له في هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة إنجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة . وعند تنويجه أدى اليمين للمأوفا لدى ملوك إنجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثاني لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل للمسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أدخل معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك في المسائل الدينية . وأطلق سراح دانبي واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسى أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التي أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، وللمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع في آلة التعذيب ، المشهورة ، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة . وحاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفائه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه في مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، في اسكتلنده ، وفي ١٢ — قصة المضارة

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لإنجلترا ، في مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكى . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن ولؤاامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثانى ، وتمهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحرىات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة فى ١٧ يونية ، وأعدم فى ٣٠ يونيه ، وبذلك أخفق الجناح الشمالى للثورة . ولكن أهالى دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه فى ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثانى ملك إنجلترا . ولم يقدم له الأشرف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية فى سدجور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية . ولاذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة رأسها قاضى القضاة جفرىز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإفهام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمخلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفرىز قذف فى قلوب المخلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدموية » (سبتمبر ١٦٨٥) (*) . وشنق نحو أربعمائته ، وحكم على ثمانمائته بالعمل الإيجابارى فى مزارع جزر الهند الغربية (٧) . وكانت اليزابث فى ١٥٦٦ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشية ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا فى شكل مناقشة

ولكن جفرين تفوق عليهما في إرهاب اللّهمين والمخلفين والتجهّم والمبوس ،
وصب الامعات على ضحاياه ، والتحديد في وجوههم في كثير من الخبت ،
والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة (٨) .
وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولكن ما أن تمت
الإبادة الكاملة وخذت النار المحرقة حتى رفع جفرين إلى مرتبة النبلاء ، وعينه
رئيسا لمجلس اللردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طالب
من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذي يقضى باقصاء الكاثوليك عن
الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق في قانونية
الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشيء من
هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يمين الكاثوليك في وظائف الدولة .
ولما اعترض هاليفا كس على امتهان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس
من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سنديرلند الذي أعلن تحوله إلى
الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع
لرسوم نانت^(٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التي
يتمتع بها البوربون ، لما تردد في إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في
إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقة بالفعل ،
وأن لويس الرابع عشر في نظره هو للمثل الأعلى للملك . وقبل الاطانات من
لويس لفترة من الزمن ، ولكنه أبى عليه أن يعلّى سياسة الحكومة
الانجليزية . فتوقفت الاطانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده . وعلى
حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه
التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية . كما أن البابا إنوسنت الحادي
عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزي
بعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومه (١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الانجليز ،
كمد حذر هؤلاء أن يكفروا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت
لتعنيف الأب بنزلومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة (١١) .
إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، والسكنه كان يخشى قوة
لويس الرابع عشر التي تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل في إمكان
تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروطاتها
إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ
عهد ماري تيودور — ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان
والملك لا بد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية (١٢) .

ولم يستغد جيمس من هذا النصيح . إنه أحس ، وكان في الثانية والخمسين
حين اعتلى العرش ، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات
الدينية التي ينشدها والتي يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا في أن ينجب
ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقاب عمله رأسا على عقب ، إلا
إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب
بنز والملسكة وسلطانهما على كل نصيح بالتروى والتربت . ولم يكتمف للملك
بالذهاب إلى القديس ، تحفه الجلالة والمهابة للمسكية ، بل طلب كذلك إلى
مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القديس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ،
وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية ، وحرص القضاة (الذين كان له حق
تعيينهم وعزلهم) على تأكيد حقه في أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات
التي فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمره ضباط أغلبهم
من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا
لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان .
وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية
علانية . وأصدر في يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات
في الخلقات المذهبية . ولما خطب الدكتور جون شارب في « دوافع

المرتدين « أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسة الإنجليزية ، هنرى كمتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية ، فرفض كمتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، محسكه كنسية « جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاكت كمتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسة الأنجليكانية ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة . وبدلا من ذلك انتهج سياسه التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسة الرسمية . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بحجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنية على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تسكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقة تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينية ، ومنح الحرية الدينية للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينية المسلمه . وأخلى سبيل كل المسيحيين بسبب الخلافات الدينية . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أبتت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط . وأكده للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونية . وبما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفا كس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في إنجلترا ،
للحركة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس
١٦٨٧) - « أكثر النشرات توفيقا في هذا العصر (١٣) » حث فيه
البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التساهج الذي قدم إليهم الآن ،
صدر عن ملك موال لسكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتذكر التساهج
صراحة . وهل يمكن أن يكون نمة انسجام دائم بين حرية الفكر والتعبير
وبين كنيسة لا تحظى ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين
دمغوم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ،
وأنتم اليوم ملائكة النور (١٤) » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة
الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيها يتعاق بأبناء الشيطان ، وأنها في
السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخذت تخالفها لألوان من الاضطهاد
والتعذيب تفهمهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجل
الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين
والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جيما أن يرضوا التساهج الراهن ،
ووعدهم على الفور بتساح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والكنيسة
الرسمية . وبمات بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأذلية
نأت بجانبها في تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل بهذا الجيع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات إنجلترا لمدة سنوات مضت
من أساتذتها وطلبتها الالتزام بذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يسئل
من ذلك إلا منح درجة اطالب لوثرى ، ومنح درجة نفزية لبلوماسى . ولم
على أن التساوسة الأنجليكانيين رأوا في أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها
الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكاني ، وتقرر ألا ياتق بهما
أى كاثوليكى . ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكاني راهايا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعة وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعة . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفي نفس العام رشع الملك لرياسه كلية مجدلين في أكسفورد ، رجلا لا يتمتع بوزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكية ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئه الانتخابيه رفضوه كذلك ، ففعلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

وامتدت وطأة الاستياء عندما ارتضى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفي يولييه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستمر ، عضوا في المجلس المخصوص (الملكي) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبه (١٥) . وفي ١٦٨٨ عين أربعه من الأساقفه الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسه الكاثوليكيه في إنجلترا ، وخصص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين في أنه أصبح لسكل من الفرقة بين كنيسه تساندها وتعاونها الدولة .

وفي ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذي مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير « لسكل الأنجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لا بد أن

يعتمد التعيين في الوظائف والترقي فيها على الجدارة الشخصية لا للمذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلفات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رطايه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجمهور ، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغیضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفي ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة انجليكانيين إلى الملك ظلاما أو ضحوا فيها أنهم لم ترض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس في الاعلان ما يخذش أو يسىء إلى كرامة أحد . وواعد بأنه سوف ينظر في ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا في الغد فعليهم أن يدعوا الأمر .

وفي صبيحة اليوم التالى بيعت آلاف النسخ من هذه الظلاما في شوارع لندن ، في الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يجافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلاما على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة المالكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه للشريعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلاما . وفى ٢٠ مايو تليت الظلاما فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوا فى الكنائس الست والتسمين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثل أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشرف المملكة ، ليسوا في حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحيام الأهالي وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفي يومى ٢٩ و ٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة - أمام محكمة الملك - أربعه قضاة مع هيئة المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتية ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التي حدثت اليوم (١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق . وسار الناس في موكب خلف شيوخ من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاحبه . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، في الواقع ، حتى ولو لم تسكن من الناحية النظرية ، ملكية دستورية ، لا ملكية مطلقة .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعت له الملكة فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن ينشئ هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكية ، وكان يمكن للوالد والولد ، فى وجه أیه معارضة أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس - ألا وهو الملكية القديمة ، تعيش فى وثام ووافق مع الكنيسة ، فى انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة في ظل هذه العقيدة الحقبة الوحيدة العالمية .

٢ — الاطاحة بالعرش والمملك في المهدي

ربما كانت هذه الولادة التي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت السكرته على رأس الملك المتهور . واتفقت إنجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لاعادة الكاثلكة ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيتها لنفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت إنجلترا البروتستانتية في أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع للملكه وليدا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الأبنه البروتستانتية ماري عن ورائه العرش . وانعطفت إنجلترا أكثر فأكثر نحو ماري ، على أنها أمل البروتستانتية الأنجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بشورة أخرى لاجلاس ماري على العرش لتتكون ملكة إنجلترا .

ولكن ماري كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة ؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري ؟ وفوق كل شيء ، أنه هو أيضاً يجري في هروقه الدم الملكى الأنجليزى . أن أمه كانت ماري أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس في نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجه الملكة . ومن الجائز أن الاستف بيرت - الذى كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هربا ، عند إرتقاء جيمس العرش - أقنع ماري ، بايعاز (١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعة التامه لواجب « فى كل الأمور » أيا كانت السلطه التي تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه فى يديه هو ، لأنها لا ترغب إلا فى أن يعمل هو بالوصية التي تقول : أيتها الأزواج أحبوا زوجاتكم ، كما تعمل هى بالوصيه التي تقول : أيتها الزوجات أطمئن أزواجكن فى كل شيء (١٨) » وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقتة السيدة

فليب (١٩) ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يجوز لهم فوق كل شيء ، أن يخذعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوروبا ، ولما خاب فأله ، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التي إنظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون طاق (٢٠) ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لورثة عرش إنجلترا . ومتى ولد للملك ابن فن الواضح أن يستطحق ماري في العرش . وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكنفيلد إلى إنجلترا ليقم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وطادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن داني ، والأسقف كمتون وغيرهم . وكانت الرسائل فامضة مبهمة إلى حد لا يثمن عن خيانة صريحة ، واسكنها انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش .

وفي يونيو ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم في التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذي يقصر حق تولى الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني (٢١) . أن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى ، ولد ابن لجيمس على فرص وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيو ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثاني عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل داني ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في

١٦٨٣) ، هنرى سدنرى (أخو الجرانون) ، والأسقف كبتون . أما هاليفنا كس فإنه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر الممارسة الدستورية . ولسكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سنديرلند وجون تشرشل ، وكلاهما آنذاك فى خدمة جنيس (بعثوا إلى وليم يؤكدون مسانديتهم له (٢٢) . وكان الموقعون يعملون علم اليقين أن دعوتهم خيانية ، ولسكنهم وضعوا حياتهم على أكتفهم صمداً ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أوق شروزبرى الكاثوليكي السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيهه ، وعبر البحر إلى هولنده ليسانعد فى توجيه الغزو (٢٣) .

ولم يكن فى مقذور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقته من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أية لحظة . وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمه فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لآنجلترا ، لملها بأن الهدف الاسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتنا آل هابسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كذلك كيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحملة بركته ورضاه السامى . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكية أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحة بجيمس الكاثوليكي وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصدافه والتحاليف» القائمه بين آنجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعان الحرب على كل من يغزو آنجلترا . ولسكن جيمس الذى خشى أن يؤدى هذا البيان إلى توحيد صفوف رطايه البروتستانت ضدّه بشكل أقوى ، نفى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعده فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمه ألمانيا ، لاهولنده (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعيه العموميه للمقاطعات المتحدّه ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حملته قد تؤدى بآنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفي ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسة مائة سفينة نقل ، وخمسة مائة فارس ، وأحد عشر ألفاً من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقبح ثانية في أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن مزقته العاصفة . وفي ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالاً بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيمهم في « ثورباى » ، وهو منفذ على المائش على شاطئ دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفرين وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع في سالسبورى تحت أمره لورد جون تشرشل ، ولحق للملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاحلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل (٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدرركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جنجيز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوماً مزهواً مختالاً ، حين وجد أن إبنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليما كس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليما كس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً للحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلخوا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدي الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانتقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الدليل إلى قصر هويتبول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسلمون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له ، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه ، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذي آثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كوفنتري . وأعلن « المؤتمر » الذي انعقد هناك في أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتمعون أن يتوجوا ماري ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءاً حيويًا أساسيًا في قوانين المملكة :

حيث أن الملك السابق جيمس الثاني .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحریات هذه المملكة من جذورها :

١ — باتتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان .

٣ — بإنشاء « محكمة خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بحماية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، في غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

• — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — بإقامه الدعوى أمام « محكمة الملك » في مسائل وقضايا هي من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكة

وشرائعها المعروفة . ولما كانوا (أعضاء البرلمان - المجتمعون) على ثقة تامه من أن . . أمير أورانج . . سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أئدتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينيه وحریاتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر ، يقررون أن يعينوا ولیم وماری ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكة على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بمد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء . .

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأبذ من كل قلبي على أنها كفر وهرطقه ، تلك النظرية الدنسه اللعينة . . التي تقول بأنه يجب أن يخضع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئه في المقر البابوي في رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسه أو من العرش . . كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغي أن يكون . لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي ، أية ولاية أو سلطه أو سيادة أو سلطان . . في هذه المملكه . أسألك العون على هذا يارب . »

وحيث ثبت بالتجربه أنه لا يتفق مع سلامه هذه المملكه ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيدعنون للبابا أو الكنيسه في رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدينون بالمذهب البابوي ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وجرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التصع بتاج وحكومته هذه المملكه (٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجوهريه لما أممته إنجلترا البروتستانتية « الثورة الجليليا » ؛ وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التي طالما نازع فيها أربنة مؤثر من آل ستيوارث ، وحماية المواطن

ضد السلطة التمسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش إنجلترا أو المشاركة فيه . وبلى هذه النتائج في الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة في الارستقراطية مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صفار الملاك الممثلون في مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهي » تحولت إلى أوليغاركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكية الخاصة للأرض . وهي أوليغاركية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعات والتجاره والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعاليه . واستردت مدن إنجلترا حريتها ، لتحكمها أوليغاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمه ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة (٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتكون ملوك الأرض حكم إنجلترا ، على أن توجه الارستقراطية الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجاريه ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

وغم عناصر مخزيه غير كريمه كانت في « الثورة الجليليه (٢٧) » . فها يبدو أنه مدعاة الأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولنده ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه في الإطاحه بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت و قدست سلطته الإلهيه المطلقة في وجه أيه ثورة أو أي عصيان . كما كان مدعاة الأسف أن يكون تثبيت سياده البرلمان على حساب مناهضه حريه العباده . ولكن السيئات التي أقرتها هؤلاء الرجال والنساء طويت في الأحداث مع رقاهم ، أما حسناتهم التي أدوها فقد بقيت بمسدم وآتت أكلها . أنهم حتى في إقامة الأوليغاركية وضعوا أسس ديمقراطيه كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعده الانتخابيه .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزي قلعتة ، آمننا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما في هذا التوفيق الذي يدعو إلى الاعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزل من أنف الملك المتزعج المنهوك الآخرق الذي تخلى عنه الجميع في ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم ولیم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : داني رئيسا ، وهاليفا كس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركز هاليفا كس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفا كس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكفيه لعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عشر على « مقالات » مونتاني ، وأصبح فيلسوفاً . وإذا كان للمركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذلك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفا كس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعنى حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة للمعرفة التأملية (١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفا كس . إن فى الجمع من الناس قساوة مثرا كمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردى الطبع ٠٠٠٠ ان الغمغمة الغاضبة فى حشد

١٣ — قصة المضارة

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء في العالم» (٢٩). لقد عاش من قبل في ظل «الارهاب البابوي» حين كانت الجماهير تقذف الرعب في المحاكم. ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية المولعة بكسب الأنصار، طرح معظم اللاهوت، إلى حـد أنه، كما يقول بيرنت «تحويل إلى ملحد جرى» ثابت العزم، على الرغم من أنه كان غالباً ما يحتاج إلى بأنه ليس كذلك، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس في العالم رجل ملحد. واعترف بأنه لم يستغ كل ما فرضه رجال الدين على العالم. وكان مسيحياً، امثالاً، وآمن قدر طاقته» (٣٠)

وعندما عاد إلى إنجلترا استرد ممتلكاته، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أميناً. وخدم شارل الثاني حتى علم بأمر «معاودة دوفر» السرية. ودافع عن حق جيمس في عرش إنجلترا، ولسكن طارض في إلغاء «قانون الاختبار»، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكي قصيرة. وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً في انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثاني إلى وليم الثالث. والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو أنه حق، وما كان لينحاز إلى أى حزب. وكتب في «أفكار وتأملات»: «إن الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما، والتجمل يحول بينهم وبين الخروج منه» (٣١). ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب، دافع عن نفسه في كتيب مشهور «شخصية الحول القلب»

إن اللامظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال في قارب. ومال به قدم منهم إلى جانب، فلا بد أن يميل الباقيون بنفس القدر إلى الجانب الآخر، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويًا أو متمدلاً (٣٢).

وكان في بعض الأحيان عديم الضمير، فصيحياً دائماً، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاحت صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال: «إن الأوز أنقذ رومه، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت في مناصب القناصل « (٣٣) (١) »

ولا بد أن هالينا كس ابتسم ساخراً عندما حول « اللؤتمر » نفسه الى برلمان ، ثم صمد الى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهي التي ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريناز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعائة من رجال الدين الأنجليكانيين للتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينازعون حق وليم في الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الراضون « من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلي » (٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين في انجلترا . ويرى بيرت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم في موضوع يمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل في تدعيم الاتحاد الآخذ في التفاقم (٣٦) » وضعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ في اسكتلندا — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألغوا وليم ينجح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ في أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطلق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريناز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح فى المقاطعات

(١) ان فاقاة الأوز المقدس المنزهج فى السكايتول أيقظت الهامية الرومانية لاصد

نظاره ليلية قام بها السكت هـ ٢٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز ديني في صداقاته . إن الكالفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة في النفس وكأنها عامل من عوامل القدر . وفي ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الديني على أنه في حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التي سماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الإلهية » وأخرى « الله » (٣٧) . ورأى في الأخلاقيات الدينية في إنجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يجد التفرغ والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم « قانون التسامح » الذي أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذي عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين للمتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول إنجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التي سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحي ، والتي نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العباد بتأجيله إلى سن الـ ١٧٠٥ . وبتقضى « قانون تثبيت التسامح » الذي صدر في ١٦٩٦ سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه في مشروع « قانون التسامح الشامل » الذي قدم في أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف اللشقيين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل اللشقيون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وحدث في ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بمقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع في الحرية الدينية في إنجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه في أية دولة أوروبية أخرى
بمد ١٦٨٥ ، باستثناء للمقاطعات للتعهد . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته
في إنجلترا بازدياد قوة إنجلترا إلى الحد الذي تحررت منه من مخاوفها من أن
تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها في الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا في عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح
الملك أنه ليس في مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية
إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك في إنجلترا (٢٨) . وظل
القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس في دور خاصة . وما كان
أحد ليتحرض بهم لوتستروا في شيء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور .
وفي أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة
لللكية المطلقة) وللمتشددين ، الغلبة في البرلمان ، شددت القوانين ضد
الكاثوليك ، فتمرض العقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يدان بأقامة
القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا في دار أحد السفراء . وتنفيذا
للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإداة . ونص القانون
على نفس العقوبة لأي كاثوليكي يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز
للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للذهب الكاثوليكي .
وما كان يجوز لأي فرد أن يشتري أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على
أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد
للمسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أى فرد امتنع عن أداء
القسم (٣٦) . وفي ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك في أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم
ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثاني إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت
جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى
قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره في
سان جرمان ، وخصص له ستائة ألف فرنك سنويا ، وجيز له الآن أسطولا

و إلى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا (٤٠) » . وفي ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه في أيرلنده مع ألف ومائتي رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان في ٧ مايو وألغى « قانون التسوية » الذي صدر في ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضي التي انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتي شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندي . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده في يونيه ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان في معركة بوين (أول يولييه) فر جيمس من الميدان مذهورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرطان ما عاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بمقصد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الرعاء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالاستيلاء على المزيد من أراضي أيرلنده . وطاد وليم إلى إنجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دي جنسكل ، إرل أنلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى محبه في انتصاره في بوين . وأوصى الملك جنسكل بإصدار عقو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنسكل استسلام جولواي وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التي عرضها وليم . وفي مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكي يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت في أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزي . ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء عيمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخبز إلى جسد للسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندي الجديد ، وكان بروتستانتيًا تمامًا ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا في مكثيل أوروبا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك في أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذي وقعه وليم وماري من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية للمدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليك أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا يزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتيّة تزوج من كاثوليك (٤٢) . واستمرت مصادرة أراضي أيرلنده حتى « لم يعد هناك في الواقع أرض تصادر » (٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يسكب كاثوليك أيرلندي قضية في محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالاً لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التي كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف في إنجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أي بلد آخر سوى إنجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون في الجزيرة ، خارج نطاق « البسال » الانجليزي (قسم في شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفي الستين عاما التي أعقبت الثورة الجليلية هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون في ١٦٨٨ ، أي أن أركى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية في إنجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من للنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفي ١٧١٠ أُضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنواع الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة (٤٤) هلى أن الانتاج القوي كان آخذا في الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط إيرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه في القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف للمليون من الجنيهات في القرن السابع عشر (٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساسا من التوسع في الصناعة وفي التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يكن الدخل كافيا ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفي يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييرا أساسيا في مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومة بدفع ٧٪ فائدة سنوية عنه . وفي أخريات ١٩٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومة مبلغ مليون ومائتي ألف جنيه بفائدة قدرها ٨٪ تحصل من رسم اضافي على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التي جرى عليها العمل في جنوه والبنديقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذي صدرت براءة تأسيسه في ٢٧ يوليه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤٪ . واقترضوها للحكومة بسعر ٨٪ ، وجنوا أرباها اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية . وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومة قروضا أخرى . وفي ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض .

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزىة المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقدية تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانونى ، فحكوات أول عملة ورقية حقيقية غير زائفة فى انجلترا (٤٦) . (٥)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانة بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيدة التى سكنت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت . أما العملة للشوهه أو التالفه منذ أيام اليزابت وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائية جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسمية . ودعا مونتاجو أصدقاؤه جون لوك واسحق نيوتن وجون سومرز ليمدوا لانجلترا عمله أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافة مسننه تتحدى التشويه . واشتردوا العملة القديمة وسحبوها من التداول بقيمتها الاسمية ، وتحملت الحكومة الخسارة الناجمة عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مئارا تحسد أوروبا ، ومثالا تحمديه . وفى ١٦٨٩ فتحت بورصه الأوراق الماليه فى لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرعان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبي » (١٧١٩) و« انفجار » فقاعتها (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويدي فى أحد مقاهى لندن شركة للتأمين تعرف الآن بكل بساطه تبعت على الفخر باسم « لويديز » وفى ١٦٩٣ أصدر آدم واند هاللى أول نشرة وفيها تبين بهر وفه . وأكدت هذه التطورات الماليه ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحسدت بداية الأهمية المتزايدة

(٥) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ ، وحاول ١٣١٥ ادخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العلة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوست ١٦٩٠ .

لرأسماليين - الذين يمدون برأس المال والذين يدبرونه - في بريطانيا .

وفوق الاقتصاد الأخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التورى) مالكي الأرض وبين الأحرار (الهوريج) جامعى الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا مؤامرات لقتل وايم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن وليم مهتما بالشئون الداخلية في إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها وبين هولنده (موطنه الأصلي) ودول أخرى ، لتقف جميعاً في وجه لويس الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : « أنه استولى على إنجلترا وهو في الطريق إلى فرنسا (٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أو الشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكاً محبوباً . وقد يقسو دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال همشيرة مكند ونالد في جلنكو لتأخرهما في إعلان ولائهما له (١٦٩٢) ، وكان « صموئلا فظاً غليظاً في المعاشرة » لأنه كان يتكلم الإنجليزية بصعوبة . ولم يمن كثيراً بالسيدات . وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع في لندن « الدب الهولندى الوضيع (٤٩) » ، وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه في تفوق الهولنديين تفوقاً عظيماً على الإنجليز في المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسى والأخلاقى وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشري حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، وأنجز في شراء أصوات أعضاء البرلمان . وكان الخبير كل الخبير فيما يمكن عمله لكسب جهاج فرنسا الهاشجة المتحفزة . وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، ففسد بدأ عهد الوزراء الأثوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة في المسئولية والعمل ، والتي يسيطر عليها رجل واحد ، هو فى العادة وزير الخزانة . وفى ١٦٩٧ جاء أعداؤه المحافظون (التورى) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حد أنه فكر فى الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنكه الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتمزى عن هزأته في الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هياً لانجلترا . مشاركة أكيدة في « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثني عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوروبا البروتستانتية ، ويطلق يد إنجلترا في بسط نفوذها على العالم .

٤ - إنجلترا في عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة ماري ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة القواد ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتمس العزاء والسلوى والجرأة في صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجز الضاحكة الوفية الشكاكة الوائقة من نفسها المفعمة بالحياة والنشاط . وفي ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جسون تشرشل ، وفي ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركى . وحالف التوفيق الزوجين كليهما . ولكنهما لم تمسا العلاقة الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التى كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تنادىها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كأن أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفي ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت في ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، في أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحميكان له الدسائس مع الملك المخلوع . وأسرت للملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولسكن الأميرة رفضت . وفي صباح اليوم التالي (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلا من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحددت الملكة وللملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هويتول لتعيش مع سارة في « سيون هاوس » . وفي ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيرا ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدى من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« في آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتمدى عني ٠٠٠ . وإني لاتوسل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تمودى إلى مثل هذا الحديث ثائية . وإني لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإنني لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بمد ذلك . فإن فعلت دون موافقتي ، (ولو قدر لي أن أوافق لما كان لي أن أرى وجه الله قط) فليسوف أعتزل الحياة ، ولا أرى العالم بمد ذلك ، وأعيش حيث ينسأني البشر جميعا (٥٠) » .

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم في ميسس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعادته إلى سابق مكانته ونفوذ .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير لإيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزله ، من طبيعة البلاط الأنجليزي ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب والهمو والفجور إليه منقذا . وآوا ساخطين ناقلين إلى المقاهي والمواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليلع . وكتب ستيل « البطل المسيحي » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولتموفج حياتها ، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الإنجليزي . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين في الكنيسة الرسمية نصيب العرش في « بشائر النصار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولاتزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا في كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا في سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان في مقدور الملكة الآن أن تحدد هي السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يترجع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل إنجلترا في « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذي غلبت آراؤه ومعهورته على كل ما عداها ، والذي كانت قد رفعت فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن أشقى في حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب دامية باهظة التكاليف . وكانت لاتزال واقعه تحت تأثير صديقتها . وهي آنذاك دوقه والمشرقه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصة . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذي كاد يكون مغناطيسيا على الملكة ، في زيادة ثراء زوجها ، فمين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدنى جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أميناً بشكل شاذ ، كما كان قديرا في الشؤون المالية كما كان يمكن الاعتماد عليه في تمويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعة بقدر ما يقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف صمره يضطلع بشؤون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال » (٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه في صراع الديكة وسباق الخيل والميسر ، وهي رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للمفضية . أن تجرد آن من الذكاء والطمع مسموح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التي كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء ، لا بين البرلمان والملك . وفي ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلي وزيراً للدولة ، وهنري سانت جون وزيراً للحرب . ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساً خفيفاً : فان هارلي كان يستخدم ديفو وسويت ، كما كان سانت - بوصفه فيسكونت بوانجبروك فيما بعد - ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوماً مشهورة . « أبحاث في دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة في انجماهما في ذلك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بمون من مالبرو ، ولكنهما اقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) في عهد شارل الثاني ، وتوفي (١٧٥١) في أول سني « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلاً دقيقاً عبور أوروبا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة في فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليماً دينياً كثيراً ، وأهدر قدراً كبيراً منه أيام كان رجلاً . وأنه ليروي لنا : « كنت أرغم حين كنت صبياً على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذي كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩ (٥٢) » وفي ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق في الذكاء والتسكاهل الخالي من الهموم ، والانغماس في الملذات والادمان على الشراب في لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يشمل . وبأنه يخادن بهظ الماهرات نفقة في المملسكة (٥٣) . وفي لحظة أراد أن يسكتني فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ما هجرته لخياته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد في ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيراً ، نسبياً . وهناك حظي في مجالس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما يجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان إنجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعها للملك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان . واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنّت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التمرينة الجركية التي أملاها الحق والحسد بين البلدين عوقت نجاحتهما . وفي ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندي ، وفي ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التي بمقتضاها أصبحت المملكةتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الديني المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطاني واحد ، مع حرية مطلقة في الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلًا اسكتلنديًا لمجلس اللوردات ، وينتخب ٤٥ عضواً في اسكتلندة لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو في علم جديد واحد . « اتحاد جاك » ولم يرحب أهالي اسكتلندة بالاندماج ، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة . ولكن ما جاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة . وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلي وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) في أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلي على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التي أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجتها نظرات سارة وصوتها المنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت يتحررها من مداومتها على البقاء في البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضائل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — توري » تقية محبة للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخدام له . وكم ألحت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت نائرة ساره عليها بشكل وقع طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفي نفس السنة مادفوز « المحافظين » في الانتخابات ، بهارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين في وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جونانان سوينت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢) . وابتهجت موه سات لندن حين سمعن نبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام ، وكلها لنا » (*) . وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لا يقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلى المدن ، وستائة جنيه لمندوبى الريف (٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالسكة الأرض ذروتها آنذاك في انجلترا .

واعتزمت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفي ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التى تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متمهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة : ٢ أبريل ١٧٦٩ ، لنواتير ، وهو فى الغالب كلوب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢١٪ من اللبائع التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا في البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم في ١٧١١ إلا نصفه الذي تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل (٥٥) ، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه (٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢١٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه - دون تسجيل علني في الحسابات - على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه في الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة (٥٧) » أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مدينا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فعاد انجلترا إلى المنفى الذي اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش في هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو (٥٨) . ولكن الشعب البريطاني تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتعجز النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه في ١٧٠١ حين مات آخر من بقي على قيد الحياة ١٤ - أمة الحضارة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان - رغبة منه في احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش إنجلترا بمقتضاه في حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والاميرة آن - إلى الاميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجرى في عروقتها بعض الدم الملكي البريطاني لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمنا للحفاظ على إنجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطشها على أخيها المحروم من حقه في العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالاً للشك في أنها لا بد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكاثوليكية . وأعرب الأحرار « عن تأييدهم التام لوراثة آل هاوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض يولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أرى التخلي عن عقيدته الكاثوليكية . على أن يولنجبروك القى لم تكن الديانات في نظره إلا أنواعا متباينة تكسو الموت جلالا وشرقا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطؤه الشديد في هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهي كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن يولنجبروك سيد الموقف .

ولكن في ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلم البروتستانت في إنجلترا لمقاومة أية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة يولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شيرزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفي أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت محبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك إنجلترا

أن سنى حكم ولیم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة في تاريخ إنجلترا . وعلى الرغم من الإحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا في الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتية نهائيا في إنجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الالتفاف من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة في ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع في اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووجدت بطريقة سلمية بين إنجلترا واسكتلنده ، في دولة أقوى ، هي بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الأمر النهى في أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت إنجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات إنجلترا في أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة في إنجلترا في « مبادئ اسحق نيوتن » ، وفي كتاب لوك « بحث في التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديمة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق في الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير في أى مكان في العالم في ذلك العصر .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوبفت ١٦٦٠ - ١٧١٤

١ - صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب فى ١٧١٢ بزت د انجلترا
فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية . .
انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠
« بأكبر دور خلاق (١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية
فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والمعادن التى
جلبها شارل الثانى والمهاجرون المائدون ، وأن جزءا آخر نبع من ديكرات
وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دى سكوبرى
ومدام دى لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند
وجرامونت . وأما لدى التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية
والتأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال
من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلايف فترات ملتون إلى النثر الممذب
المصقول المنطقى الذى دبعه دريدن وهو يكتب المقدمات وإلى الشعر
الذى نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ - ١٧٧٠) كان
الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نفما
واضعها ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فان الأثر الفرنسى كان مجرد استحضات ، ولكن
جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة
بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إنراء الفكر بفضل

التجارة ، وفي الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفي قهرها (١٧١٣) ففرنسا التي كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضىخة أو رشوة تمنح الأ نصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايخين للحكومة — دريدن كوجريف ، جاي ، بربر ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبحصة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير في الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير في شيء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية (٢) . ورعى شارل الثاني العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يسكث وللم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون في عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التي يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثائوين ، وبعضهم مثل بربر Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون يرع في التعمين في الوظائف وفى المحسوبة وفى التدخل فى شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحفظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، فى عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أممى من أبولو أو فينوس فى جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو فى كمال العقل والدهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لغيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريوباجيتيكا » قد اخفقت فى القضاء على « قانون الرقابة » ، الذى تمسكت به الرقابة فى الصحافة فى عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول فى عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده في عودة الملكيه لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثاني في إزطاج الأمة ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعت حرية الصحافة تلقائياً . وربما طال الوزراء الملكيون يمتقلون التكتاب بسبب هجماتهم العنيفة للمتطرفين على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك في أساسيات الدين للسيحي ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التي أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً في نمو الفكر الإنجليزي .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جيماً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثاني في صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمي ، أصبحت واحدة منها هي « أكسفورد » وفيها بمد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعية منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفي ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعي البريد Post Boy » والتي لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث طاكسها « الأحرار » في الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً في ١٧٠٢ أصبحت The English Courant هي الصحيفة اليومية المنتظمة في انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المنقطعة نشأت عمالقة الإعلان التي تراها اليوم بين أيدينا .

وأى ديفو مستوى جديد في صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ - ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهي التي بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل في « تاتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١). وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية في « سبكتاتور » (١٧١١ - ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالي وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، فقرضت عليها ضريبة ثمينة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد. بها جعل البقاء مستحيلاً بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التي احتجبت . وقال سوينف لبطلته وصديقته ستلا : « لقد دمروا شارع Grub بأمره^(٣) (الشارع الذي يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولجبروك في ١٧١٠ « اجزامر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد في جوناتان سوينف رجلاً واسع الاطلاع لاذع القدح والطمع ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطنى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام ، وإعدادة للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأورال الديويوه .

١١ - المسرحية في فترة عودة الملكية

فيما بين عامي ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكات أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيويه والنشاط . وحيث استطاب شارل الثاني المسرحيه الباريسيه فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته في « درورى لين » والثاني لدوق يورك وجماعته في « لنكوان ان فيلدز » وفي ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة في هابماركت ، ولكنها نادراً ماشهدت التمثيل فيه . وفي أيام شارل الثاني كان مسرحان اثمان يفيان بالحاجه عادة . وظل البيوريتانيون يقاطمون المسرحيه ، أما الجمهور بصفه عامه على أليه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠^(٤) ولم يقصد إليها في معظم الأحوال إلا كل عريبد ماجن من رجال الحاشيه ، وحنالة الطبقة الأرستقراطيه والمتصلين بها ، والأثرياء المتمطلين الذين

يقضون أوقاتهم في المسارح والنوادي وسباق الخيل وغيرها . يقول :
دكتور جونسون الوقور : « أن المحامي الوقور ليحط من قدره ويمتنع
كرامته ، وأن المحامي الناشئ ليس إلى ميمته ، إذا غشى بيوت الاباحية
للنحلة هذه (٥) » وشكل النساء قسماً صغيراً من النظارة على أمن إذا ذهبن
إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة (٦) . وكانت العروض تبدأ
في الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة في الشوارع (حوالي
١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات
والمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلناً واحداً . وكانت أجهزة التآثير
المسرحي وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه في أيام اليزابيث .
ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفي لمعظم ملهيات عصر
عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان في تأدية أدوار النساء ، وكن
كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التي مثلت ديدمونا لأول مرة
ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزي (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة
الأمير روبرت (٧) . وفي عرض مسرحية دريدن « الحب الاستبدادي »
تعلق قلب شارل الثاني لأول مرة بخليته نل جوين التي كانت تمثل دور
فاليريا (٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ،
وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة
روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من
جديد ، وتأثير المسرح الفرنسي والمليكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل
تجمعت لتشكيل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللامع في « مسرحية المأساة » في عودة الملكية هو دريدن
لنتركة مؤقتاً ، لتتحدث عن مسرحية توماس أوتواي ، الحفاظ على فينيسيا »
التي عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب
مطممه بمؤامرة أصدقاء كوت دي أوزونا لقلب سناتو فينيسيا في ١٦١٦ .
ويرجع مصادفته من نجاح في البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التي

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يجب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحية ثالثة إلى تمثيل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذيه ، خاتمها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبيها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخصيها مصورة تصويراً مميّزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها يتنافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولكنها أثرت عليه معاتمة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسله من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى القمقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعاً (٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخرية ، ومحاورات داعرة ، ومغاورات فى الخدع ، بالإضافة إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحده فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختلصه لاتكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لاتصور الحياه بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليمه المتهمته ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفاً لاستهزاء والسخرية ، أو « سيبيريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للمتطفلات . إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو يمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخصيه أو حيكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعه فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفكرة الاساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الثرى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياه . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فى « المنجم الهزاة » على أنه « سيد ماجد ، رجل ثرى

طافل يغشى النوادي وللقاهى وللسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن . وفى رواية شاركوا « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكانما يقول سيد مذهب لآخر : « إنى أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإنى كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة » (١٠) وهذه لا يبنى أنه لا يشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتها وأطابها ، على حين ترك زوجها أن يعنى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمعشوق موضع الإعجاب لزوجته صديقه « يجب أن تشمرى بالاشتمزاز والنفور والسكرامية لزوجك مما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك (١١) » . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهم بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنما تلتهم عند قراءتها . أن تقع العين على ظل لمسأى النبل والشرف ، ولكننا لا نرى فيها ألا أخلاقيات للمواخير وبيوت الدطارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا . من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوربتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوربتانيا . ولم يعتقد وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأميرة صمعت حين أصبح كاثوليكيا . وسرطان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى إنجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدي كاسلين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلين (١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد .

ماجد ، وعاد إلى إنجلترا ولم يمسه سوء ، وأحرز نجاحاً آخر في « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة في المقدمة - إذا لم تعجبهم الرواية - إلى دخول غرفة ملابس الميشلين في ختامها ، وهناك :

« فإتنا عن طيب خاطر . . . نتخلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشوييف اصطحب زوجته معه لقضاء «ستبوع في لندن ، وأحسكم حراستها إلى حد أنها لوقعت في شرك القوادية تحت سمعه وبصره ، ذلك أن من يدعى مستر هورنر - العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق - أذاع بين الناس أنه خصي ، ومن هنا يستنتج بنشوييف أنه لا حرج في أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الوير المتودد إليها الذي أدعى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تسكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هي فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التي تم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهر المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبمد فترة أتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر في أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليشيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليشيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برفقة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر في النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لا يتحلون بقدر كاف من الرجولة .

« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم ممثلون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لا سبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفي روايته التالية « التساجر

للشريف « حول وتشري شخصية « ألت » في رواية موليير « مبنض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف ، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب للدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحي ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ووز » سمع وتشري إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمزته نشوة الفرح ، ولم تسكن هذه إلا كوفتس دور جيداً ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مباشرة مما كان يفعله بنشوييف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشري إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتباً . وبلغ وتشري أرذل العمر فى شقاء ومعاناه . وظل مع عجزه بلاحق النساء ، ويسكتب نظماً ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج العاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فابر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام إنجلترا وشرايها ، ولو أن جده لوالده هو جليليس فإن برو ، وهو فلمسكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه في كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطاني ، وقضى مدة في الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفي ستة أسابيع - كما يروي لنا هو - فـكـر وتصور ، ثم كتب ومثـل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بما فيها من هجاء مرح للمتأقنين في لندن ، مثل لورد فو بنجتون وملاك الأرض في الريف مثل سيرتنبلي كلزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلي يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفروح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنات المسكينات : إنها ستفزع وتنزعج في ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبتلونه القصير » (١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظي ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حالياً يجب على أن أختبئ » ، وهنا يمكن الكتابة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك . وعندما يأتي توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعاً ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذلك امرأة عجوزاً » (١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحاً كبيراً إلى حد أن فابرو تمجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذلك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالي يتحف لندن ويمتصها بتمثيله للمستهلكت لشخصية سيرجون بروت ، وهي أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخص المسرحيات في فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبيهاً بالخنزير في ملاك الأرض الالمجلز - يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويعطن ويهكرو من « عصر الاتحاد العمين هذا » . ويفتح المسرحية برأيه في الزواج حيث يقول :

«أى لحم متختم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حوامى الخمس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمعه ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد بمؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بظمها وعفتها ، قدر ضجري بزواحي وسأبهي الهاه .

ومذ عرفت زوجته آراهه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا .
ليدى بروت : إنه أساء معاملى أبلغ أساءة مؤخراته حتى كاد يستقر عزمى على أن ألب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخونه . . .

بيلندا : ولكذك تملين أنه ينبغي علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .
ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة (١٦) .

وهنا تأتي جارتها ليدى فانسيل التى تميل إلى ماتميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تجيب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :
الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بمد ذلك نزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .
الوصيفة : وقيمتها عالية جدا يا سيدتى .

ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بشرفك من أجل متمتك ؟
الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لا يتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .
الوصيفة : ولكنه للثمة . . .

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل ، وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولماذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتي تغمرني بالبهجة والسرور ، أما عقلي فيورثني

الجنون (١٧) .

وربما كانت هذه الراوية هي التي أثارت غضب جرمي كولبير إلى حد أنه في العام الذي تلا ظهورها ، نشر هجوما عنيفا على للمسرحية في فترة عودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كولبير كاهنا أنجليكانيا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد في عقيدته . وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثاني ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة في اقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران للطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كولبير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولكنه رفض المنول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنية . ولكن الحكومة قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للمصنفة التاريخية التي قام بها كولبير .

وكان الكتاب الذي نشره كولبير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس في المسرح الإنجليزي » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب في المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أية اشارة غير كريمة لرجل الدين ، ونشر في سخاء شديد ، مظلة المصنفة

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة اللذين -
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشبللس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودریدن ، حتى يشعر كل اللثمين ببراءتهم لمجرد حشرهم في زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كولبير أضعف قضيته في مجادلته في أن للمسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخاطئ مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته في كل مكان . فتمنى على كثير
من كتاب المسرح في فترة عودة للملكية ما أبدوا من إعجاب بالاسفاف
في الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات
في بناء قصر بلنهم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بلاديو الروماني
الجليل (١٧١٤) . واعترف دریدن بخطاياها ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنسكز كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكية ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز في ١٦٧٠ ، في أسرة كانت عراقبتها موضع فخره
واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامبة
انجليزية في أيرلنده ، ولذلك درس وليم في مدرسة كاسكني ، وجاس على
نفس المقعد الذي جلس عليه جوناتان سويفت ، ثم في ترنتي كولدج في دبلن ،
ثم في مدل تمبل في لندن . وسرى في دمه جرثومة الطموح الأدبي من بيئته
كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفي أول سنة كان يدرس فيها
القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التي امتدحها ادموند جروس
« لمرحها ودعابتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
السلوك ؟) في الإنجليزية (١٨) ، ولكن صمويل جونسون قال عنها «
خير لي أن أمتدحها من أن أقرأها (١٩) » ، وحظي كونجريف بالشهرة من

قفزة بملهاته الأولى « الأعراب المعجوز » ١٦٩٣ ، التي أقسم دريدن - وهو عميد الأدب للمعترف به في إنجلترا في هاتيك الأيام - بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل في مجال الرواية ، ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل للماجد ينبغي أن يكتب للمسرح ، فإنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية في فترة إبلال بطيء من علة أملت به » ، ومن هنا قال كولبير « ليس لي أن أسأله ماذا كانت علقته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج (٢٠) » . أما هاليفا كس فإنه اتفق في الرأي مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف في منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضلها أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل في عالم المسرح .

ولم تلتق روايته الثانية « التاجر الخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيرا ، ولكن اطراء دريدن ، الذي وضع كونجريف مع سكسبير في مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشئ ، وفي ١٦٩٥ ، في سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولبير شجب الرواية وانهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حسدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام . وعندما عاد إليه برواية « طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسي ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التحفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهاة الإنجليزية (٢١) » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها . وقد تهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتدكرنا بالتلاعب الضعيف بالألفاظ في أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسر بريسجيردل كما حدث في أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعنا بما فيها من حيوية وتألق

١٥ - قصة الحضارة

يقول وتوود « أعرف سيده تحب الكلام بلا إقطاع ، ولا تترك أنراً حسناً (٢٢) » وحبكة الرواية باللغة التعميد ، وقد تنذر من طول الوقت للطلوب انهم شجارات ومشروبات الشخصون التافه الطائفة ، وحل المقدة لا يعمدو أن يكون سخفا لاحده . ولكن في الرواية بمض تهذيب في اللغة وفي الدمايه ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتمجل ، وليس فيها سخرية لازمة ، كما هو الحال في مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساي إلى قصر هويتبول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية . وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير خصائصها . فالبلط ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسمى للزواج من ميللامات ، بدلا من إغرائها . ولكن ههنا نروة تساوي اثني عشر زاييا ، وهي أجل ما أبدع كونيبريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدي الحياة ، من أجل ممان أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترضى الزواج ولكن بشروط :

ميللامات : ... لاشك يا ميرابل أتى سأبقي في الفسراش في الصباح
كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامات : توافه : - أكون حرة في تناول طعامي متى أشاء ، وأتناوله وحدي في حجرة ملابسي ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يمتنع علي أحد خلوتي . وأن أجلس « امبراطورة » وحدي إلى مائدة الشاي التي لا يجوز لك أن تفكر في الاقتراب منها قبل أن تستأذني أولا وأخيراً حينما كنت ينبغي عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هي شروطي ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أفضاه هيناً فديتاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألسنت حراً أن أعرض شروطي ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشرت عليك أن تستمرى تمجيد وجهك وتمجيد به طالما أحببتة أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألقته أنا ، فلا تحاولي قط تشكيله من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامات : آه : لا تذكري شيئا من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله في محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنك من إرتداء الملابس المحبوكة التي تشد جسمك لتحفظي بقوامك حتى لا تشوهي ولدي ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، في أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونيغريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثرا التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولسكنه اختلاف إلى سلسة من المشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رقيقا لطيفا في المقاهي والنوادي . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أ كولا ، وكان يدهن قدميه ويمالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونيغريف إطراء الشاعر الفرنسي لرواياته ، وأبدى عدم اكرانه لها ، على أنها توافه لا تستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنت مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك (٢٤) » .

وفي ١٧٢٨ ، في رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية في باث ، انقلبت عربة كونيغريف ، وهل يعانى من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية في ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن في كنيسة وسقمنستر . وفي وصيته ترك مائة جنيه لسز بريسجيردل التي كانت تقاسى الفقر في شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيقتة الأثيرة لديه ، فحولات للمال إلى عقد من اللالى . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجها بانتظام من النقرس (٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يظهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير اللهاى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وحرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداه السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللاتى حرم من هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين (٢٦) .

واتفق سويقت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الإنجليزى . وعرض ستيل روايته «العشاق الشاعرون بالانم» (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للنساء الفرنسية وجلالها فى مسرحيته «كاتو» (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كولبير ، حيث أحس دريدن أن السكاهن غالبا ما حمل على كتاب للمسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلأى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولسكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كولبير لأنه اتهمنى فى شياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفسكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولا بد من سحبها . فإذا كان يناصرنى المداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أتى لم أهيم له . فرصة خاصة ليسكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأى ندمت (٢٧) .

٣- جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة في نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التي علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبي Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتي كولدج في كمبردج . وفي العام الذي حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التي كانت تدرستين جنيتها في العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفي ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذي قيمة بشكل ملحوظ من شاعر في التاسعة والعشرين من عمره . والحق أن دريدن نضج في بطنه ، وكأنه رجل يتخطى في جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء في نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلك الشاعر لعودة الملكية في قصيدته « عودة النجم » التي قارن فيها نجمة شارل الثاني بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجزأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولو اظهروهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثنى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التي وصمها بيترز بأنها « أحقر شيء رأيته في حياتي تقريبا » (٢٨) . وفي أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدي الزباث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشيرأبت الإصباتي دهشا من سيدة ذات مكانة و ثراء تزوج من

عناصر ، ولكنها كانت في سن الخامسة والعشرين ، وفي خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تماون دريدن معه في رواية « للملكة الهندية » التي أخرجها ١٦٦٤ ، في مشاهد بالغة البذخ ، مع نبح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا في تاريخ الأدب ، حيث نخلت عن الشعر للرسائل الذي كان سائدا في عصر اليزايت ، واستخدمت للقطاعات للقناة ذات البيتين الذين يتكون كل منهما من خمس تقاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أوريري قد تأثر بمجلاوة واتساق القافية في للأساة ، وأدخل هذا الأسلوب في رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر للرسائل بحد ١٦٧٥ ، معتقيا بأن القافية تفضي إلى تمويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقي عناء أكثر في نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاوني بمثل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندي » (١٦٦٥) ، وكان موثوقا بطل الراوية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزي حتى دام الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج المجلدات من هذه الحنة الثلاثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة المعجائب » (١٦٦٦) وهي مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تأرجح بين الوصف الرائع (المقامع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاحة الصببية (مثل للقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد في ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منقارا نانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أممي منزلة من مأسيات شكسبير (٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافنات في إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باجماع المهترئين فيها أذال صياغة الجديدة تطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » في هذا الرأي لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات في السنة مقابل

حصّة في الأرباح التي بلغت ٣٥٠ جنياً في العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحاً أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه في هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأي العام في الدنيا الجديدة والمهجين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور في « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم في الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة المعائب » ، من مديح منمق لشارل الثاني ، هو الذي كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك رينار التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوي آنذاك ألف جنيه في المتوسط .

وفي خاتمة القسم الثاني من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية في عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والجمالة ، إلى القول بأن في هذا اطراء مغالياً لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون في المدينة جمهور المسرح إعجابهم وتذوقه للغة الطنانة الرنانة المسرفة في مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين في ١٦٧١ هجاء صرحاً تحت عنوان « التجربة » سخر كثيراً من المستحيلات والجماعات واللغة الطنانة للنمقة في المأسيات للماصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمه له ، ولكنه كظلم غيظة لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير في شخصية « زمري » في أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأختيفول » .

وفي الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفي أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

هكسبير. والشعر للرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه في عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض في نوب جديد قصة أنطونيو وكليوباترة التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن ببناء وإعجاب أكبر ، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل للكظوم ، كما يتمثل في قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفيح أو غسطنيا عنه (٣٠) . ورواية دريدن محكمة في ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيع للشهد الكبير الذي رأى في « أنطونيو وكليوباترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتاا وتشويقا اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحي . وكان كورني قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالاً لثرائع . وإنما إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع في الأدب الإنجليزي كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسي والإنجليزي . وانك اتري في هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير في النثر في عصر اليزابث ، والجدل الطنانة المتركة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من الترا كيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسي ، لم يجمار الإناقة الفرنسية كل المجازاة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكلف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكي (النموذجي الممتاز) للأدب الإنجليزي .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التي كانت سبباً في كتابة المقالات ، فإنه في الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه في ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال في الهجاء » لانهمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويدي كيروال) ، بلاط شارل الثاني بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذي كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفي ليلة ١٨ ديسمبر في « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقه وأوسموه ضرباً بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلاً ودوداً كريماً مستعداً لم يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وإفراطه في التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ، دون ردعاني منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه في ١٦٨١ جمع عديداً من أعدائه في رجل واحد وسلمهم بالسنة حداد ، في أذع هجاء عرف في اللغة الإنجليزية .

وتلك هي السنة التي حاول فيها شافستبري أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثاني غير الشرعي أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبسالوم وأخيتوفل » كان شافستبري على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وأحماز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه (٢١) . وهزأ الشاعر من شافستبري في شخص أخيتوفل الذي يمرض

أبسالوم (وهو دوق مونتوث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثاني) .
ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فإن القصيدة تبدأ
ببحث في قيمة تعدد الزوجات :

« في عهد التقي والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليهم ، وقبل أن
يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تسكار الإنسان بتعدد زوجاته
وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بكل بغيض . وحين استعنت الطبيعة
— ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ،
وحين ماش ملك بنى اسرائيل ، برضا السماء ، على الزوجات والاماء من مختلف
الانحاء ، في قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق نطاق على
الأرض ، بأسره . »

ويتهج دواد بجبال ابنه أبسالوم . وكان مونتوث ، حتى قيام الثورة ،
قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثاني) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز
(في القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهية إلى آخر مداها ،
شمع الله المدلل الذي انغمس في المذات والشهوات ، والذي لم يستطع أن
يحكمه ملك أو يرضيه إله (٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخياسة ، وتتحقق لندن لغورها
أنه شافنسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جيما اختيوفل الكاذب ، وهو اسم ملمون كرية
على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى
جربى مضطرب الحواس ، قلق ، لا يثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ،
غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل
بين جنبيه همسا محمومة مضطربة انهكت وأبليت جسم القزم وهى تشق طريقها .
ضاق بها جسده الهزيل . قائد جسور لأخطر الأعمال انيااسة ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتمس الأعاصير والروابع ، لأنه لا يحب الهدوء .
يدنى سفينته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمة
قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا -
وهو ذو الثراء المريض والمناصب الرفيعة - يرضن على شيخوخته بما تحتاج
من راحة ودعة ؟ . لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقوقه
فى عداائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو (٢٣) .

ثم يجى دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :
ويقف على رأس هؤلاء (المصاء الثأرين) زمري ، وهو رجل متعدد
الجواب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ،
جامد الرأى ، يجافى الصواب دائما . كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه
لا يثبت على حال . وخلال فر منير واحد ، كان الكيمياءى والعارف ، ورجل
الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ،
فضلا عن عشرة آلاف زوجة تموت فى المهد . . وكان تبديد المال فنا خاصا
برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحقى
المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ،
وحصلوا هم على ماله وضيعته (٢٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ،
الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة موهمة
فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمشات خارج نفس المحكمة التى كان
يحاكم فيها شافتسبرى ، مخاطراً بحياته . وفضت المحكمة ببراءته فصك أشياءه -
الأحرار (الهوج) « ميدالية » تمجيداله ، وانبرى عدد من الشراء
والكتاب ينزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى
أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه السكاوى إلى الملك . وطود
دريدن الكرة بهجاء آخر ، « الليدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ،
بصفة خاصة ، فى قصيدة « ما كفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فأنحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم في دقة دون اسراف أو اسفاف .

إننا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الدبح » الأدبي ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وأنا لثرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، في أن هناك بعض الصدق في كل عاطفة أو هوى ، وأن في كل خصم أو عدو شيئا محببا .

وما السياسة حتى في أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارث يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمة ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة في الشتاء ، وفي الشرفة صيفا ، وهناك رأى بيز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) »

وصورة سير والتر سكوت ، في خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محموكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق في وجهه أرق ابتسامه رأيتها في حياتي (٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه في آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سموطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشئ . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرع في كيل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) (وما كان لأحد أن يبزه في طراء شعره . إن تعلقه للملك وليدى كاسلين ولكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء إليهم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الدليل في مهنته في عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادلته التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرحمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافاً وميلاً ، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والترور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائده هجائه اندفاعاً طارئاً بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين — التوري) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في إنجلترا ، مستنكراً عدوان العقل للمتغطرس على هذا الحرم للمقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفي نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاً عن الكنيسة الرسمية . وبداله أن الكتاب المقدس للنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتكمله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تبكر صغور النظام الاجتماعي للمعقد الذي لا يمكن أن يدهمه إلا قانون أخلاقي تقره عقيدة دينية .

لأنه لا قيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل ما يهيم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تستخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحويله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندرى إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرش في السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندرى إذا كان لهذا الأمر أو ذلك دخل في هذا التحول (٤٠) . على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعرى ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة « الأيلة والتمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض) تدافع عن للمذهب الكاثوليكي ، ضد تمرة « هي أجمل النوع المرقط » التي تمثل المذهب الأنجليكاني . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في القربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف .

سرمطان ما أثارها ماثيو برير Prior ولورد هاليفاكس في محاكاة تهكية تحت عنوان « الأيلة والجمرة تنقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة للدينة » (١٦٨٧). وفي ١٦٨٨ فرجيسم الثأى إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعين من جديد في ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون في روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل في شجاعة وجدل فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ للملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه للناسب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على الهراء ، وصوره نموذجاً للغباء . وعاد في شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأبيات في شعر بطولى في أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفي ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته للشهيرة « ولجة الاسكندر Alexanders Feast ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء . ووافته للنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع للتنافسة جثمانه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان اتهازيا نفعيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال للديح لهارل الثانى وخليقاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكي ، وألمس موارد كسب للمال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، بما لا بد منه أن يكون تمثيلا يكرهه الناس فيه . وجارى كل مناسيه فى إباحية رواياته وتجورها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وم يحترقون على الخازوق . ولكن

لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الانجليز في جيله . وكتب معظم شعره في المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحداً غيره لم يستطع أن يأتي بمثل هذا الهجاء الذي صور الشخصيات في ازدياد قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعري البطولي ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم والرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزي طيلة قرن من الزمان . وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب للزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته في فنه في صناعة الأدب والكتابة ، وملكاً على عرش القوافي ، فكان بن جونسون الروائي ، ودكتور سمويل جونسون الكاتب ، في وقت معاه في عصره .

٤ — في ثبت واحد

والآن نجمع في قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنها الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالآداب ، ولكننا لن نستطيع أن نمسك معهم طويلاً لنتتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة في الجانب الوثني من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هي ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر ، سمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضيئة في خدمة سير سمويل لوك ، وهو مشيخي (برسبتيران) متحمس غير ، ضابط برتبة زعيم في جيش كرومول ، كان مقره في « كوبل هو » ، وهي قلعة بيوريتانية للسياسة والعبادة . وعندما عادت الملكية ثار بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .
« حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم
لم يدركوا السبب ، وحين أشملت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار
الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالجائنين أو المضمورين ، من أجل
« السيدة : الديانة » وكأما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ٠٠٠ وحين أعلن
نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الأذان الطويلة ، النفير من أجل
الحرب ، ودقت طبول المنبر والسكنيسة بجماع الأيدي بدلا من العصى .
عندئذ فادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده متزهما الركب ...
وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى موتأني من أن قطتة حسبته ،
وهو يداعبها ، حمار آ ، فلا بد أن القطعة تحسب هو دبراس حمار أو أكثر من
حمار ، وإنما لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فإنه ينجل من
استخدامه ، وكأما يكره أن يستنفذه ويبلية ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه
إلا في أيام العطلة أو ما يشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ٠٠٠ وكان
من اللأثم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه
مشيخياً صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين
الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة الجاهدة
الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات بمدمية
لا تخطيء المرعى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات والسكات . الرسولية ..
فرقة تتمثل أعظم تقوالم في كراهياتهم الحقاء الضالة ، الشاذة فرقة نحرم
على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، بجمعة
على الخطايا التي فطرت عليها . تلحن أولئك الذين لا يفسكرون فيها (٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح
شارل المؤلف جائزة قدرها ثلاثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة
فيما عدا يبز الذي لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم
من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية (٤٤) ، وبأدر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يمد في جمبته سهام ، ولم تسعف القوافي . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والليبيرتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحوه مغمورا معهما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية في كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز ففتح حجرا (٤٥) » .

وخير من هذا الشمر الهزلي المعتل الوزن الذي بتصيد القوافي ، ثركلارندون التخم في كتابه « تاريخ الثورة » الذي ظهر في ١٧٠٢ على - الرغم من أنه كتب في ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس في عهد الملكة آن مقدار العناية التي بذلت في تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضي القضاة الذي ضرب قديما ، طالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرت دورا ليس بهزيل في كتابه « تاريخ زمانه » الذي لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فسكان حملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر في وقت كانت فيه إنجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحروون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايحه وينتصر له ، وفي بعض الأحيان يكون موضع ذم وطمع . ولكنه يظل أعظم مرجع في موضوعه ، وحاول بيرت أن يوسع دائرة التسامح الديني ، فكسب عداة السوق .

وسمى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا من الماضي . وطاق توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال في إنجلترا (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فذلكات وحكايات ودماية وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أثنوي وود تاريخ أ كسفورد ، وجمع ثبتا حوى سير حياة خيريجيها ، وللقوافي القيمة ١٦ — قصة الحضارة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلاصة . وجمع جون أوبري شذرات ممتعة
عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة
في تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتنا دون طبع « سير الحياة »
قبل ١٨١٣ (٤٦) . وقد شجعنا ذخائره على اللضى في طريقنا . وهناك
السكرولونيل (الزعيم) جون هشتشون ، وهو بيوربتاني أيد إعدام شارل
الأول ، وزج به شارل الثاني في السجن ، وما أن أخلى سبيله حق طاجلته
المنية ، وخلدت أرملته لوسى ذكراه في كتاب « حياة كولونيل هتشنسون »
وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسى كان يعيها
الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون
آريوتنوت ، الطبيب البارع ، والصديق المخلص لسويغت وبوب والمسككة
آن ولسكرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ،
بأن أصدر في ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف
شخصية خيالية هي « جون بول » الذي أصبح منذ ذلك الوقت رمزا على
التجترا . ويقول جون آريوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس ، سريع الغضب ،
جريء ، متقلب المزاج . . . إذا تملقته ولاطقته كان سلس القياد ، إن مزاج
جون يعتمد كثيرا على الهواء ، فيرق مزاجه أو يتسكدر تبعا لحالة الجو .
وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة
إنسان أشد منه إهمالا في إمعان النظر في حساباته ، ولا أكثر انخداما
بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رقيق سرح ، مولع بالخمر والامو
والتسلية . والحق أنه لا يوجد انسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء
في الاتهاق من جون (٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تامل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من
فصل بلغ الدروة بسكرتيه ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن
للورخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطعمان في الزواج ، حتى قضت

إحداهما نجحها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلبه لوزراء المحافظين
استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم في ذم البشر ، ولكن خدم
وطنه في هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفي عصر سادته الفساد والفجور ، ضرب
لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل
لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروتى أو زيورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة
إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة
أسرتيها . وتزوجها بعد أن شره الجدرى جمالها . ودخل تمبل معتزك
الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب
« العبودية المفضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات
والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء ، السلطة
والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع
عشر التوسمية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق
للملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه
آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاي . وأدت مفاوضاته للموسومة بالحصافة
والنظر الثاقب إلى زواج ماري ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح
ملكاً فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى
١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ،
ضميمته فى « سرى » وحسبه سويقت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير
وليم وأخته ، كليهما ، أحبته إلى حد العبادة ، على أنه ملك الرحمة
والسكياسة والالطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ،
الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة
الحديثة ، فى شخص نيوتن وهويز وسبينوزا وليبنيتز ولوك . وتصيد بنتلى
مكاتب خطأ جسيما . فأوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بايقور ،
ولسوف بلتى به ثانية .

٥ - إيفلين ويبرز

اتفق جون إيفلين مع تمبل في « أنه إذا دخلت الأحزاب في الدولة وتمتعت جسورها فيها ، فن الحق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال في الشؤون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وغادر إنجلترا في يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها في أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك في برنتفورد ليشترك في الانسحاب في نفس الوقت القوي وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة في الجيش آوى إلى ضيعة أبويه في ووتون في سرى . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفي باريس تزوج من فتاة انجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثاني في منفاه ، وفي ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا لتسجيل بعودة للملكية . وبعد ارتقاء شارل الثاني عرش إنجلترا أصبح إيفلين شخصية مرموقة في البلاط ، ولو أنه دمه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه في معظم الأحوال آثر أن يفرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا في بيته الريفي . ودون كل شيء من لوكريس إلى سبتاي زيفي . وعجز كتابه « للبحر » عن تنقية هواه لندن ، ولكن في كتابه « أشجار الغابات » دأ دعوة حارة إلى إعادة تدجير إنجلترا ، وحث الحكومة على فرس الأشجار في مختلف أنحاء لندن ، التي تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى في فضائل النساء وسط عريضة عودة الملكية وصحتها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون إيفلين في مذكراته كل ما رأى وسمع في إنجلترا أو في القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المسكنة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسببة ، ولكن وصفه لمدن أوروبا ساعداً كثيراً على اكتناء ماهية العصر . فى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « عمر ميمبلون (٥١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرفقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، التى كان بيبز قد أوصى بها لكلية مجدلين فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تلاً أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . اما من حيث الصراحة ، فن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبئ كتابتها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورده سردا وافيا لعملة فى أركان حرب القوات البحرية الإنجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمان طويل تذكره وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطاً (ترزيا) فى لندن ، وكان ابنا صغيرا لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل تمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الايسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة . إلا تأييب على « لأنه شوهد يوماً يحتسى الخمر

بشكل مخز ، ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التي أعدها فيما بعد . وفي سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من اليزابث ساند ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفي ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة في الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة في مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل في الأسطول الذي قاده لإحضار شارل الثاني من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباً للعمليات في إدارة البحرية . فثابر على دراسة الشؤون البحرية بالقدر الذي يسمح له به مطاردته للنساء . ومنذ كان رؤسائه منسكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنها اعتمدا على معلوماته . وفي أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحاً مشهوداً في تأمين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله في الوقت الذي فر فيه معظم موظفي الحكومة . وفي ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذي استمر ثلاث ساعات في مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئة لا تستحقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والتحلل في هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دوراً في إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداً جباراً ، وكان يصحو من نومه عادة في الرابعة صباحاً (٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستمين على راتبه الذي يبلغ ٣٥٠ جنيه في العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التي يمكن أن يسيب بعضها رشوة ، ولكنها كانت في هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أيه وظيفة هو الذي يجعل شاغلها غنياً ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها (٥٣) .

وكل ما ارتسكب يبيز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسيباً .
وليس واضحاً أمام أعيننا السبب الذي من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة .
إنه أخفها في حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاحترام الخاصة
به ، مستخدماً ٣٩٤ حرفاً مختلفاً ، ولم يضع ترتيباً خاصاً لنشرها بعد وفاته .
وواضح أنه وجد لذة وممتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات في
أعضاء جسمه وشجاراته الوجودية ، ومغازلاته وعيبه ، وعلاقاته النسائية
الشائنة . إنه - إذا أطاد قراءة هذا السجل - بينه وبين نفسه - لا بد أن يشعر
بما نشعر به نحن من رضا خفي إذا نظرنا لأنفسنا في المرآة . وهو يروي
لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت في رأسي وجسدي .
نحو عشرين قلة » وهذا في إعتقادي ، أكثر مما وجدت في هذه السنوات
العشرين (٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ،
تميز في بعضها غيظاً ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفي إحدى
المرات « جذبها من أنفها (٥٥) » . وفي مرة أخرى « لطمتها على عينها
اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكيننة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها
اهتاجت وحاولت أن تعضني وتخدشني بأظفارها ، ولكنني تظاهرت بالخلج
مما فعلت حتى أمسكت هي عن العويل (٥٦) » ووضع على عينيها ضمادة ،
وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم فادره ،
حيث لقي « زوجة باجول ، فصحبتهما إلى إحدى حانات الجعة ، وهناك
لائمتها كثيراً ، ثم افتقرت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أطاقتها وأقبلها ،
ولكنها لم ترغب في شيء من هذا ، مما ضايقتني كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة
الحوية فاستبدل العشيقه كل بضعة شهور ، وطارد النساء حتى صددهن
عنهن بالدبايس (٥٧) . واعترف بأنه « وقع في أسرا الجمال إلى حد غريب (٥٨) » .
وقال « كنت اجتمع في كنيسة وستنستر إلى عظة ، وقضيت الوقت (ساعني

« الله » محمداً النظر في مسز بتلر (٥٩) « وكان يتطلع في شغف خاص ولطف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى - إلى ليدي كاسلين (عشيقة الملك) » ومذ وقع نظره عليها في قصر هويتبول « استغرق في النظر إليها (٦٠) » .
ولكنه قنع بشيائها المرصوفة في صف واحد ، وفي هذا يقول « وكان من الطير لي أن أتطلع إلى هذه الثياب (٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنني أأازل مسزستيوارت (ليدي كاسلين وأعبث معها . في نشوة قامرة من السرور (٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى قاتنات البلاط فحسب . فقدمت ببابه يوماً مسزديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبث معها فترة طويلة (٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبت (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سئمت رفقتها « صممت » على ألا أعود لمثل هذا ما حبيت (٦٤) » وضيافته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فبدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته - ديبورا ويملت - وكان يجب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعمد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ يبيز يتردد عليها وكان زيارتها جزء من عمله اليومي .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن مادة القراءة والكتابة في ضوء الشمعة بدأت تضعف بصره في ١٦٦٤ . ولكن في سنوات العسرة التي تلت ذلك ، بذل في العمل جهداً شاقاً بعفة خاصة ، على الرغم من تقادم علقته . وفي ٣١ ما يودون آخر ما سجل في مذكراته :

« وهسكذا ينتهي ما أشك في قدرتي على المضى فيه إطلاقاً بنور عيني ، ألا وهو تدوين مذكراتي . ومهما تكن النتيجة فليس لي إلا أن أتجملد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولي بطريقتهم في الكتابة العادية ، ولذلك ينبغي أن أقنع بالألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء . وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خليلاتي مع ديورا ، وقمدي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات . فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيف فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أرائي محمولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتأهب والمشايق التي لا بد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صمويل بيبز .»

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتمهد في رعاية اللغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين سكرتيرا لإمارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على أنجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام وأخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاهما بين جدران للمعتقل . وبقي بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكا على إنجلترا - جيمس الثاني - كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وطاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدًا عن العمل وكانه « مرشد البحرية المجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكلا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال عموده . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان مزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرسوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه (٦٥) وقسا في معاملته فزوجته ، وكان فاسقا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولكن لم كان له في الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح في مجال الدطارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمانة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد بيبرز، تستحق منا هنا الخناءة احترام في شيء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » في فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلبها . إن افران Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت في انجلترا ، وترعرعت في أمريكا الجنوبية . وطادت إلى انجلترا في سن الثامنة عشرة (١٦٥٨) ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندي . وتركت انطبعا قويا في نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت في مهمة سرية إلى الأراضي الوطيفة ، فقامت بها خير قيام ، واسكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفي ١٦٧٨ نشرت « أوروونوكو » وهي قصة « رقيق ملكي » زنجي ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلبه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجواب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا في لندن ، شديد التمسك بذهب البرسبيتران . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه أثر الزواج والعمل والسياسة . وأحب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموت في الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم في الإطاحة بمرش جيمس الثاني وفي ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديوانه

١٧ ألفا من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريبا فيما يمد ، وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات في طائفة من الموضوعات زاخرة بكبر مدعش من الأفكار الأصيلة . ففي مؤلفه « بحث في المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيرا عن زمانه ، في اللصاف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والسكليات الحربية ، والتعليم العالي للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيرا لمصنع للقرميد ثم مديرا ، وفي النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه في وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييدا كبيرا إلى حد اتهامه بأنه هولندي أكثر منه إنجليزي ، فدافع عنه نفسه في قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزي الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه في ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويقت في التسفيه والتسخيف عن طريق اللبالة ، وهاجم فيها اضطهاد الإنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرده المنشقين الذين يستمعون إليه من إنجلترا . وقبض عليه في فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب في الشهر . وأفرج عنه في نوفمبر ، ولكن في نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذي ساعد في الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلي الذي تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقا لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه في إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات في الأسبوع . اسمها « ريفيو » التي ظلت تظهر حتى ١٧١٣ ، وكان معظمها بقلم ديفو .

وفي عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء إنجلترا على ظهر جواد ،

يدهو للمستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساتة القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من السكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتمصب للمسيحى . وأهمهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Miss » ، بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكيتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وايم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى إحدى رحلات دامبيير ألفت سفينته للمسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدهى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى إحدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقى البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزي The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة (٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزية .

وأطبت « حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة للدهشة » خيال
اتجلترا . وظهرت منها أربع طبعات في أربع شهور . وهناك مفهوم جديد
للمغامرة والصراع - لاصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان
للتحضر ضد الإنسان للتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع
رجل وحيد ، يتمسك خوف حقيقي ، لا يجد أى عون أو مساعدة ، حتى
جاء « التابع الخالص الأمين » ، وبني حياة من اللواد الختام في الطبيعة . وتلك
كانت تاريخ حضارة رجل واحد في مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء
تاريخيا ، حيث لم ترو قط في الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء
التي تحتل الصدق والكذب في مثل هذه التفاصيل التي أخذ بعضها بخناق بعض
بشكل عارض . إن تيمرس دينوقى الخداع الأدبي رفعه من الصحافة إلى الفن .
وعاش دينوقى فى شىء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن
انتاجه الذى لا يبارى . فبيما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتباً فى الحجم
الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة
روبنسن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنسكان
كامبل » (وهى ساحرة مشعوذة صماء بكاء) ، وبعد ذلك بشهر واحد
« مذاكرات فارس » « وبن ثروفاتو » وقد حسبه بت الأكبر تاريخيا وبعد شهر
آخر أخرج « حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو
كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشفها أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هناك
وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخا كولونيل
جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ التزيه لبيتر الكسوفتش » قيصر
المسكوف الحالى - وهذه هى المرة الثانية التى يستبق فيها فولتير فى
كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضمخه أن توفر سبل العيش
لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت
أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس دينوقى إلى عقل بنى وقلبها ، حتى أفضت
إليه يقصتها بشكل يتضح معه صراحتها و إخلاصها ويدهو إلى تصديقها

ولو ظاهرياً ، حتى تركها في النهاية راضيه « آمنه مطمئنه في خير طافية »
وهي في السبعين (٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدغمه بأدق
الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخاً .

أما عام ١٧٢٤ فلا يشير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر إحدى أمهات
قصصه « السيدة السعيدة الحظ » للمروفة باسم « روكسانا » وهي المجلد
الأول من مجلدين يتناولان جولته في ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ،
و « حياة جون شبرد » وهو يوم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له
قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المدببة التي كتبها ديفو عن
حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات »
(١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روي » كما مهدت سيرة أخرى ،
هي « حياة جوانان وبلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أي موضوع
شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهاً من خزائن ناشري كتبه ، من
ذلك « التاريخ السياسي للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ،
و « الكشف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧) -
(١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة في اثني عشر جزءاً « المدل الإلهي »
يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان في الحياة وفي الحرية وفي التماس
السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ،
نرى أنه أسهم اسهاماً مخلصاً في أفسكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزي
السكامل » (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ،
والكتاب الذي لم ينته منه « الرجل الإنجليزي السكامل » ، فإنه في هذه
الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلأم في كل
الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لانحيد أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبي ، ولكننا نملك الاعجاب
بمنابرته وجدته ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجباب رمسيس الثاني ١٥٠
ولها مثل وفرة ديفو في الانتاج . والشئ الوحيد الذي يسكاد لا يصدق

في ديفو هو أنه القدي كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا المعجب كل المعجب من تربيته عقل ديفو الذي سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذكاء لمره لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهد ، والذي أخرج هذه الأشياء الوهمية للقبولة شكلا إلى أبعد حد في الأدب . وأنا لنعترف بعبقريه وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والمجته في انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع في المادة والأسلوب . ففي المائتين والعشرة مجلدات التي أخرجها (إذا صدقنا ما قيل) لا يكاد للمرء يقع على صحيفة واحدة ممله باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غيبيا فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئا من احتمال الصدق والكذب . ولم يبره أحد في بساطة السرد ووضوحه ، وفي كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الافناع . وهنا كانت عجلبته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق والزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفي ونزعتة الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر معنى في زمانه بكل معاني الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويفت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التي أثبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بذور امنتقاء بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أي شرف ، ولسكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جليليفر » وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكي لبني الإنسان (سويفت في رحلات جليليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية في رجال الأدب الانجليزي في عصر زخر بهم .

٧ - ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أي إنسان غيره بداية عصر الانتقال في الأدب ، من عودة للساكية إلى حكم الملكة آن . واتصف في شبابه

بكل صفات العريضة والمصعب والفجور التي سادت فترة عودة للملكية .
ولده في دبلن ، وكان أبوه موثقا تماما (كاتب عدل) ، وتعلم في مدرسة
تفارت تراوس وأكسفورد وكان حساسا سريع الاحتياج كريما ، وبدلا
من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في إيرلنده ،
وكان يسف في شرب الخمر اسفا ، وبيارز حتى يقارب أن يصرع خصمه .
وأكسبته التجربة رصانة طابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا
عن « البطل للمسيحي » (١٧٠١) جادل في امكان أن يكون المرء سيدا
ماجددا مهذبا « جنتلمان » مع بقاءه مسيحيا . ووصف الفساد الذي
ساد العصر ، وطاد بذكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان
الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتن .

وكان في التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي
ينتمي إليها ، تتبرم به على أنه واعظ بمل ، فعقد العزم على النهوض برسالته
عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمي كوايير بالخلاعة والفحش في
المسرح ، فابرى في سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة
على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت
مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة أشكسكوا
في حل عقدة الرواية أو في تمييزها ، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب
الوصايا العشر مهما كان الثمن غالبا ، على حين أن اللنديين الحصفاء الذين
قد يتعاطفون مع مشاعره ، فلما كانوا يظهرون في المسرح . كيف الوصول
إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي . وفي ١٢ أبريل
١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من
صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler »
وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » .
ووجهها إلى المقاهي ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والسكياسة ، وللسرات والتساية ، تلتقون بها في « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر في « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التي ساقدمها فمن عندي أنا .

وكان مشروعاً بارعاً ، أثار اهتمام رواد المقاهي ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفي العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيو ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيده شابة .. ترى فيها لسوء حظ . حبيبها الذي أصيب مؤخراً بجرح أثناء المباراة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذي أودى الشخص المسمى ليضيف ضغتنا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فاذا تعنى . المباراة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ في الليلة الماضية ، وتطاولك على في جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعني إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحق غير مهذب .. سألتقي بك في هايدبارك في ظرف ساعة ، حاملاً مسدساً ، وحاول أن تصوبه إلى رأسي ، حتى ألقنك درسا في آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساساً هي التي زحمت المقاهي .

وفي مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويتمتعن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد الأؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئاً إلى الصدر العاجى الجميل الذي يحمله (٦٨) . إن رفته مع النساء كانت تقبارى مع ولعه بالحجر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالدكاء وسلامة البنية . ولكنه إمتدح الكثير من تواضعن وطهرهن - وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن ١٧ - قصة الحضارة

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتححرر في تعليمك »
واعتبرت تاكري « أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة (٦١) ». .
ووصف ستيل ، في إحساس عميق ، مباحث الحياة الأسرية ، والوقع الجميل
لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها في كل يوم تدخل على قلبي سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها
أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا في نضارة الشباب ، إن كل لحظة في حياتها
تقدم لي أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولي ورغباتي ، وحسن تدبيرها
بالنسبة لمواردى في أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته
لأول مرة . وليس ثمة ذبول في تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظه
التي حدث فيها نتيجة إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير ٠٠ إن
حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا
الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماحنه
عن مستوى المرح الهادى ، الرشيق عند الأماجد المهذبين (٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته
لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات
عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل
البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيرا
وأنفق كثيرا وإستدان كثيرا ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء
أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار ملصا من دائنيه ومراوغة
لهم ، ولكن فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو
صحيفته « Teller » بين عذاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا
لآراء ستيل ، وتناقض عدد المشتركين فى الصحيفه واحتجبت عن الظهور
فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكاتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ،
لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصة

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال في صحيفه « سبكتانور » .

وولد أديسون وستيل كلاهما في ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا في مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ما قاوم به كل مساوي ومفاسد فترة عودة الملكية . وكسبت له براعته في اللاتينية منحه دراسيه . وفي سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفا كس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كلية ماجدلن بتحويل الشاب من سلك السكننة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفا كس « يقولون عنى أنى عدو لكنيسه ، أو لكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها (٧١) » ولما كانت المقدرة في اللاتينية غير مقرونة بمعرفة اللغة الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفا كس خصص لأديسون ثلاثائة جنيه سنويا لينعق منها أثناء إقامته في القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل في أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينا هو في جنيف إرتقت الملسكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاؤه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصا لسائح إنجليزى شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت في فقريسته التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغناطيسا » يجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو في معركة بلنهييم في ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفا كس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة ربانة « الحلة » ونشرت في نفس اليوم الذى دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن إنجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المخلق طاليا الذي كتبه
أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه ياربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتملت فى
نفوسها يران الغضب ، المتراصة فى ميدان المعركة ابنى ليخيل الى أى أسمع
دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض
وظلقات المدافع المرعبة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل
الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ،
لا يهتز لالتحامات الجيوش المهاجمة ، وفى غمرة الضجة والفرع والياس ، يشهد
كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر
فى هدوء . ويرسل للدردى الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين
للتردد من روجه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويمحسدهم للمعركة
المتأرجحة أين تشتد وتمتد . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله
زفول أرض الأعداء بريح طانية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى
هدوء ورسالة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفسا بتنفيذ أمر
الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود
العاصفة ويوجهها كيف يشاء . »

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى
وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية .
وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦
وكيلا لوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت
لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش إنجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى
البرلمان ، ويفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات . وفى ١٧٠٩ أصبح
السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أنزى إلى حد
إستطاع معه أن يشتري ضيعة فى رجبى بمشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولكن

هياً له منصباً حكومياً، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال، وطالبه مرة واحدة أن يسددها (٧٢). وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلاً من الاسم، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل، وفي «إيزاك بيكرستاف» عرف ثانياً صديقه المترف المفلس وسرطان ما اشترك في الصحيفة. وفي ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار، وفقد ستيل وظيفته الحكومية، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف. وإحتفلت صحيفة تاثلر بهذا العام بالاحتجاج عن الظهور. وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله، وفي أول مارس ١٧١١ أخرجاً أول عدد من أشهر الدوريات في تاريخ الأدب الإنجليزي.

وظهرت صحيفة «سبكتاتور» يومية - ماعداً يوم الأحد، في فوخ مطوى ذى أربع أو ست صفحات. وبدلاً من تحديد المقالات من مراكز مختلفة. ابتدع المحرر الجهور الاسم نادياً وهمياً يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز: سير روجردى كوفرنى سيد من الريف، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار، ويتحدث السكايت سنترى باسم الجيش، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصري المتأق، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة، ويجمع مستر «سبكتاتور» نفسه بين وجهات نظرم فى إطار من المرح اللطيف والسكياسة والذكاء، مما نفذت منه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً. وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين:

« قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيراً فى معظم الأماكن العامة، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة، وسأحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق. ولا يسكان يوجد مسكان يأوى إليه الناس بصفة طامة إلا وظهرت فيه، فأحياناً يرونى أوس أننى فى حلقة من رجال السياسة فى «مقهى ول».

مصنفاً بأكبر إهتمام إلى ما يدور في هذه الاجتماعات الدورية . وأحياناً
أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشىء إلا ساعى البريد ،
فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى
أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحياناً إلى جماعة
السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصفى رجلاً يذهب إلى هناك
ليسمع ويستفيد . ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جرينمان »
وفى مقهى « شجرة السكاكو » « وفى مسارح « درورى لين » و « هاى
ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجراً فى « البورصة » طيلة
هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحياناً حسبوا أنى يهودى من جماعة
السامرة الذين لا يوثق بهم فى « جونتانان » وجملة المقول إنى لأرى حشداً
من الناس إلا حشرت نفس فى زسرتهم ، ولو أنى لا أنبس بننت شفة إلا فى
النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجاً ، لا واحداً من الجنس البشرى ،
وبهذه الطريقة جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ،
وجندياً وتاجراً ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من
قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع
تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير
ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء
يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا
فى الدفاع أو عنف . وإنى طافد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق
بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطرت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من
الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى
كنت طوال حياتى « متفرجاً » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحميد
عنها فى هذه الصحيفة .

وإتقدم للمشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين اللوضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدشس بها انجلقوا حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هو ميروس ، « وانيادة » فرجيل . وتجنبنا المناقشات الخوض في السياسة التي تثير العداوات والتقلبات ، ولكن ألت — واشترك في هذا أديسوق عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعي . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنسكسة التي اجتاحت فقرة عودة الملكية ، ولكنها لم تمد الآن انهماكا لاهوتيا كشييا مفزطا في التخوير من الشيطان ومن الخطيئة للمهلكة ، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتناؤل مغلفة بالدهاء والغرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلج يوما بعد يوم على طلب ضحيقتي هذه . وتستقبل مقالتي الصباحية في جدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئاً ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المردين ستين ألفاً في لندن ووستمنستر ، أمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين ، ومد حظيت بمثل هذا العدد الكبير من القراء فإني لن أدخر وسعاً في أن يكون ما أزدوم به من علم ومعرفة مقبولاً ، ومن تسلية نافعاً مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيي الأخلاق بالدعاية وألطف الدعاية بالفضيلة ، لعل قرائي يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجرى حولهم كل يوم ، وغبية مني في ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلاً عابراً ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير ، صح عزمي على أن أتمش ذا كرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماقة التي تردي فيها هذا العصر . فإن العقل الذي يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوماً

وواحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التي لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفاً جادا مثابرا . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أثبت بالفلسفة من الخائىء والمسكنبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرات التي ترى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جديا ، وتغيرها هى ، أن تتأبر على ثراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءا من تجهيزات الشاى .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقيبح وأشد قتا من . . . الخيانة فى الصداقة أو الندالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التي أنهى بها أن تهىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التي يخوض فيها بعض السيدات الماقلات المفكرات على موائد الشاى (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التي تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجها إلى خليلاته ، وبعضها دججه المحررون فى أسلوب حديث جداً . وجمت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلا بدأ يتسائل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارسا حكيا محنكا على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوما فى دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسمادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بمطالمتها ، والمساعدة على خالق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة ففكر فيها الإنسان لتهديب الجنس البشرى وصله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبرين إذا لم يمدوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجود باسمة فى أهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أداءه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله « الكائن الأسمى » .

إن يوم الأحد يزيل صدأ الأسبوع كله ، لآله يحمى الأفكار الدينية فى العقول . بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والسكل يبدو فى أحسن صورة (٧٥) .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفسكتورى ، التى قضت بالألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة . وفى « سيكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا مصقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سيكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا (٧٦) ، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لوز
من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت
شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفقرت حيوية الكتاب المنهوكين
ونشاطهم ، وأصبحت عظامهم تبث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع
الصحيفة ، وزادت المصروفات على الإيرادات نتيجة ضريبة التهمة التى فرضت
١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل
ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان » . وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور
١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفة ككثيرهما ، لأن أديسون كان قد أصبح
آنذاك كاتباً مسرحياً ناجحاً ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .
وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « درورى لين » مسرحية « كاتو »
لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التى عرفت
عنه ، مثقلة بالوطنية النائرة للفتاة لما ، وأخذ ستيل على طاقه أن يحدد
لمشاهدة للمسرحية كل « الأحرار » الفيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك
كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحصان
وقفة « كاتو » الأخيرة دفاً عن « الحرية الرومانية » (٤٦ ق . م .) وتبارزت
صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الابتهاج
والاستحصان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد للقردين
على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو عمل إعجاب ودهشة
رومه فى زمانه قدوما هو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه (٧٧) .
واعتبرت كاتو فى القارة أجمل مسرحية « تراجيدية » فى اللغة الإنجليزية .
وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن إنجلترا تطبق صبرا
على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون (٧٨) . ويهزأ النقاد اليوم بها على
أنها خطابة ناعمة مضجرة . ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مهدود حتى
النهاية بفضل الحكمة المحسنة البناء وقصة الحب المدججة بشكل بارع فى
الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر في أن يختار للجلوس على العرش لسكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة (٧٩) ». ولكن أديسون الذي كان دوماً نموذجاً للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً في الحكومة ، لشيون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضي التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً في النوادي ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذي لا يحبه الناس أبداً » . ورغبة منه في تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كوثيسة ، ولم يكن سعيداً في حياته مع السيدة المتجمرقة في « هولندهاوس » في لندن . وفي ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرطان ما استقال بمعاش قدره ١٥٠٠ جنيه في العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجلم انزلت في عراقك مع أصدقائه - ومنهم ستيل وهوب - الذي هجاه بأنه مترمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير ، فهو : مثل كاتو يقدم للسنااتو الهزيل القوايين ، ثم يتخذ مقعده لينمت إلى ما يكال له مد مديح (٨٠) .

وكانت غائمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان في ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التي تفتى إلى حزب المحافظين أخرجته بهمة أن لغته محرصة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار في السنة التالية ، فخطى ستيل بعمدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتمادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طفت ، وطارده دائنوه ، وأوى إلى ضيعة زوجته في ويلز ، وهناك وافته المنية في أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصائله وحيويتيه ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتقما بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأسهما في ابتعاث الأخلاق من جديد في ذاك العصر ، وحددا طابع الأدب الأنجليزى وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء المبقرية البالغة القوة والنف في هذا العصر .

جوناتان سوينفت : ١٦٦٧ - ١٧٤٥

كان سوينفت يكبر متيلاً وأديسون بخمس سنين . ولكنه صر بعد
أحد مائة وست عشرة سنة ، وبعد الآخر مائة وعشرين . وكان بمثابة شحلة
متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطيع قط
أن يفتخر مولده في دبلن الذي كان مائفاً مثيراً للغضب في إنجلترا . ولم كان
قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحوه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر
الملك في دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى إنجلترا ، ولم تعد به
إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه اللغامرات
والخاطر في نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولا بد أن هذا الشعور ازداد
عمقا في نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو في السادسة
بالحاقه بمدرسة داخلية في كالكني . وفي سن الخامسة عشرة التحق بتراقي
كوليدج في دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه في الكلية بصعوبة
لأنه كان مهملًا في اللاهوت بصفة خاصة . وكثيرا ما قصر وعوقب ، وذاق حرارة
الفقر والحرمات عندما تعثر حظ عمه الذي تولى الاتفاق عليه ، وأصيب
بانهيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفي ضربة ثورة أيرلنده
لنصرة جيمس الثاني ، هرب جوناتان إلى إنجلترا ، وإلى أمه التي كانت
تعيش في ليستر على عشرين جنيتها في العام . وعلى الرغم من طول الفراق
بينهما ، انسجبا معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين
إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفي أواخر عام ١٦٨٩ وجد سوينفت عملا براتب قدره عشرون جنيتها في
العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا لسير وليم نيمبل في موربارك . وكان نيمبل
حينذاك في أوج عظيمته ، صديقا ومستشارا للملك . ويجدر بنا ألا نقسو
في لومه لاختفاقه في التعرف على العبقرية في الشاب ذي الاثني عشرين والعشرين
ربيعا الذي جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وبعض اللهجة الأيرلندية مع
جهل ما كر باستخدام الشوكة والملقحة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة (٨١) وكان سويغت يجلس مع كبار العاملين في خدمه نمبل ، إلى مائدة سيدم (٨٢) ، الذي لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن نمبل كان فأرسل سويغت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجة الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، وليم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفي نفس الوقت كان سويغت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين . عرض بعضها على دريدن الذي قال له « ياسويغت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهي نبؤة كانت دقتها تجل عن إحراك الشاب وتقديره . وفي ١٦٩٤ ترك سويغت خدمة نمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى إيرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين في وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب في كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع في غرام جين دارنج التي سماها « فانيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القاتلة في أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدرجه إلى نمبل وظل في خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويغت في عامه الأول في موربارك ، قد التقى بأسترجونسون التي قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شيء من طيش سيروليم نمبل ، الذي كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملة بخدمة ليدي نمبل . وعندما رآها سويغت لأول مرة كانت في سن الثامنة ، تبعت على السرور والابتهاج مثل سائر البنات في هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهي في الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سويغت ، معلمها الذي ناهز التاسعة والعشرين ، أن مفاتها تثير للمشاعر البدائية لدى السكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، رشيقه رشاقة غير معهودة في البشر . في كل حركة وفي كل كلمة وفي

كل عمل « هكذا وصفها سويقت فيما بعد) ، « ركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة (٨٣) » فكيف لاتفتن هلواز هذه معلمها أيبيلاد^(*) .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويقت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويقت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بيركلي الذي كان قد عين لغوره قاضي القضاة في أيرلنده . وعمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكتبة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغره . ولكن السكرتير الجديد ، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويقت إرل بيركلي والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعملا على تهدئته بتعيينه قسيسا في « لاراكور » ، وهي قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لا يزيد شمبها على خمسة عشر شخصا . والآن في ١٧٠٠ بلغ دخل سويقت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مقاومته لها في أمر الزواج ، وفي نفس الوقت كان قد وقعت عينه على أستر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتمد بأن ترضى عن كل ما يحب ويسكره ، وتحفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها (٨٤) .

ومذ كان سويقت وحيدا في لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك في ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، وبمذ ذلك في نفس العام ، دعا أستر جونسون وصديقتها مسز روبرت دنجلى ليحضرا ويقيا معه في لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفي أثناء تغيبه في إنجلترا شغلنا مسكنه الذي كان قد استأجره في دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتي فرنسي القرن الحادي عشر ، تزوج تلميذته وهشيقته هلواز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضمها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكتابة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخذتا جذوتها وكأنا وقعت تحت تأثير تنويجه المغناطيس حتى النهاية .

وتألفت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر في ١٠٧٤ في مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام ووجز لا يستحق الذكر في الجدل حول للزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثاني فهو عرض هام لفلسفة سويغت الدينية أو غير الدينية . وقال سويغت عندما أماد قراءه كتابه هذا في أخريات أيامه : « يا إلهي : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟ » (٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه في الطبقات التالية أتخفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكفيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هي « رداء المسيح السليم الذي لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتي مزقه اربا فان أحدا - خصوصا كارليل في Sartor Resortus - لم يطمئن في القوة التي لم يسبق لها مثيل التي ردها سويغت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا للرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة للفضوحة :

« هل الإنسان نفسه لإرداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عبادة ، والأمانه حذاء يلي بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كليهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع القراء الرخيص أو الثمين في موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهم إلى بعض يشكل مناسبا يصنع لنا أسقفا (٨٦) » .

وجرت استمارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية) وجاك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتيباً مقدسة) إلى جانب وصية توجيههم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث : «دوقة للمال» . أى الثراء ، و «آنسة الألقاب الفخمة» أى الطمع ، «وكونتيسة الكبرياء» أى الغرور . ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات ، بعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أطادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشى وأهداباً من الفضة (البذخ البابوى) . وسرطان ما اتضح للعلماء الثقة أن لفظة «الهدب أو الحاشية» فى الوصية تعنى عصا الكنيسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشى الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا الكنيسة الطويلة «السحر؟» وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (المطهر - مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بمذاب محدود الأجل) ثم بيعة (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) للمرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجحة الحالية من الألام طادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) - وعلى سبيل المثال : «الامتناع عن أكل شئ» بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . وألا تخرج على الإطلاق ريحاً من الجانبين دون سبب واضح (٨٧) ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لا بتداع «وظيفة الهمس» (أى الاعتراف) «لخبر وراحة المصائبين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المنص» و «وظيفة التأمين» (أى مزبد من الغفران) ، «الحلل البالى المشهور (الكاثوليكي) وبه معنى «الماء المقدس» ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلاً لله رب ، ويعصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك في يده بعضا يختال بها ،
وإذا رغب الناس في مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريباً جيداً »
قدمه (٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ،
ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحماً ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لا فناء لكما
بأنكما لستما إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيدين أصميين حقاً » ، لن
استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعي مثل أى لحم
ضأن في « ليندهول ماركت » ، صب الله عليكما اللعنة الأبدية إذا
صدقتما غير ما أقول (٨٩) . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخاً
حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان
بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم
يستظلا بسقفة منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا (٩٠) . وسرعان ما دب النزاع
بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أنوابهم الموروثة .
ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال .
ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أرباً (شيع
كافينية) . ويصاب بمساة من الجنون والغيرة . ويستطرد سوينف ليصف
عمليات الريح (ويقصد بها الوحي والالهام) عند العواصيين - نسبة إلى
عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيراً -
سخيرية لا يجوز نقلها هنا - من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم في
القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة (٩١) .
وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكتائب - المذهب الأنجليكاني إلا اليسير
من الجراح . ولكن سوينف يسترسل في القصة ، ويغير الأنواب إلى رباح ،
ومن الواضح أنه ينتهي إلى أن كل الديانات والفلسفات - لا لاهوتيات -
المنشقين فحسب - ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .
« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التي تمت في العالم . . . مثل تكوين
الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونشر مذاهب
١٨ - قصة الحضارة

جديدة في الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ . . لأن عقل الإنسان المستقر في مخه ، لا بد أن ترهقه وتغمره أبحرمة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقى المخترعات وتجمعها مثمرة (٩٢) .

ويسترسل سويفت في تفصيل فسيولوجي لا يمكن ذكره ، لما بداله أنه مثال رائع لا فرازات داخلية تولد أفسكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهتري الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هابسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره في الإستحواذ في طريقه على امرأة (هي شارلوت مونمورنس) التي حرك جهالها في الملك عصابات مختلفة « صعدت إلى مخه (٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ، ديوجين ، أبو لونيوس ، لوكريشس ، يراسلسوس ، ديسكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، . . لتعرضوا في هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياط ، والأغلال ، والحجرات المظلمة والقتل (في السجن) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعمل لهذه التصورات والأفسكار ، . . دون إشارة إلى الأبحرمة التي تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلبى ظلالة معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بمد أسماء غير الجنون أو الخبل (٩٤) . »

ولمثل « هذا الخلل أو التحول في المخ بفعل الأبحرمة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يمزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التي حدثت في الإمبراطوريه والفلسفه والدين (٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفسك عبارة عن رياح من الألقاظ ، وأن الرجل العاقل لا ينبغي له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء،
وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التي ينعطف إليها دائماً :
« رأيت في الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها، ولن تصدق أنت بسهولة
إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت (٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير الخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة، جعل من
سويفت فى الحال « سيد الهجاء » - أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى
صورة متقنة . إن القصص الرمزية أو المجازات إنسقت إنساقاً حرفياً مع
معتقده الأنجليكاني التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن
الكاتب متشكك، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه
أبلغ الملكة آن أن سويفت لم يفضل الكافر بشيء كثير (٩٧) . وكان من
رأى دوفة مالبورو الصديقة الحميمة للملكة، أن سويفت :

« حول، منذ زمن طويل، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام »
على أنها وابعها دطابة . ولكنه كان قد إستماء من أن « الأحرار » لم يكافئوه
بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس،
ولذلك سخر الحاداه ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم (٩٨) » .

كذلك نمته ستيل بأنه كافر، ووصفه فوتنجهام فى مجلس العموم بأنه
طالم لاهوتى « من العسير أن يشك فى أنه مسيحي (٩٩) . وكان سويفت قد
قرأ هوبز، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ
بالخوف، وانتقل إلى المذهب للماضى، وانتهى بأن يكون « محافظاً » يناصر
الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليل من العزاء فى أن سويفت أخرج مؤلفاً فى

الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم، وكأنها أمراض
طاعون أصابت العقل » كما نشر صندوق بندوقا (*). الأوبئة التي تعيب
Pandora (*). فى الأساطير اليونانية - أول امرأة فانية مهلكة أرسلها الإله =

الجسم ، مع طارق واحد ، هو أن الطاهون لم يترك شيئاً من الأمل في القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا في « بوتوبيا » (المدينة لثالثية) (١٠٠) .

ومن الجائز أن سويقت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، ببد في إصرار شديد كل الفرق الدينية التي ادعت أن مذهبها « هو للذهب الصحيح » . وازدري الرجال الذين زعموا — مثل بايان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلوه . وانهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الاتجار الاجتماعي أن ترك لسلك انسان الحرية في أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم طرض سويقت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير (١٠١) » . واستنكر التسامح الديني ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذي قضى باقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثرين على أنه يجب أن يكون الأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد في إنجلترا ، ومذهبها الرسمي هو الأنجليكاني ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لاغنى له عنه لعملية تمدين الأنجليز ونشر سويقت في ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة إنجلترا » ، « والدليل على أن الغناء المسيحية في إنجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل وللزجاجات » وكان آنذاك في طريقه من الأحرار إلى المحافظين .

وكان أول ارتباط سياسي له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

== زيوس ، عقابا للبعير على سرقة بروهيليوس لنار . أعطها زيوس صندوقاً فتته فانطلقت منه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التي تصيب الجسم ، (وفي رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الأمل .

بداله أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل نراة . وفي ١٧٠١ نشر كتيبا يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل في الظفر بشيء . ورحب هاليفا كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيرا إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويقت رجل لايسهل قياده ، وأن قلعه سلاح ذو حدين ، وفي رحلة موسعة من ايرلنده إلى لندن في ١٧٠٥ كسب سويقت صداقة كونيغريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب في عبارة الاهداء « إلى جونانان سويقت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية في زمانه يقدم خادمه الدليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جونانان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويقت للمتقدمة أو ثورته للتصاعدة .

وفي زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويقت بتدمير منجم دهي . ذلك أن جون بار تريديج ، الاسكافي ، أخرج كل طام تقويما زاخرا بالنبوءات للؤسسة على حركات النجوم . وفي ١٧٠٨ نشر سويقت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويما منافسا . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه في الساعة الحاية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بار تريديج نحبه . وفي ٣٠ مارس نشر بيكرستاف في نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بار تريديج مات في ظرف بضع ساعات من للوعد المحدد في النبوءة ، وذكر في تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بار تريديج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حيا يرزق ، ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرفاء للمدينة المحدعة ، ورفع مكتب التسجيلات اسم بار تريديج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسما لمحرر وهمي في صحيفة « قائل » . هندا افتتاحها في السنة التالية .

وفي ١٧١٠ طار سويقت لارا كور مرة أخرى ، موفدا عن الاساقفة

الآيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمديد معونتها إلى رجال الدين
الأنجليكانيين في أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من
حزب الأحرار في مجلس الملكة ، للوفاقه على هذا إلا إذا وافق رجال
الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارضاء من
قبضته . ومارض سوينت بشدة التخفيف المطلوب . واكتشف الأحرار
أنه كان « محافظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سوينت عمليا بأنه
« محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت ذوما
هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح
مالكى الأرض (١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك
ولقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين
محررا لصحيفة المحافظين « إجزامز » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما
وصف نائب حاكم أيرلنده - وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون
صديق سوينت ، سكرتيراله :

« ان توماس إرل وارنون . . . بحكم دستور غريب ، قضى بضعة
أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيشوخة فى
جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لسكل الموبقات التى
تمتصر الجسم والعقل كليهما . . . فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث
حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى
السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يقجر مع البابوية (١٠٥) »
وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فمهدوا
إلى سوينت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من
حملتهم لاستقاط مالبورو وانهاى حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سوينت
بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس
الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ،
وأوضح بأجلى بيان مكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على طاقهم أكثر مما على طاق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويفت «هل كان من حسن الرأي شن الحرب ، أو لم يكن ؟ » . واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) . وقدّر الكاتب رواتب مالبورو وتمويضاته بنحو ٥٠ ألف جنيه « وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهي الوحيدة في إنجلترا التي كان لسانها حادا لاذعا ، مثل لسان سويفت — صورت في مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

« أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر ريبور أسرطا فدرضا نفسيهما للبيع ٠٠٠ وكلاهما من اللوهوبين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل ماديتهما لخدمة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لا يبالي بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨) »

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعيّنوا ماتيو ريبور في منصب دبلوماسي في فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أي منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضي عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجموه . وزعم فيما بعد أنه أهدى الخمسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير ولیم ثمبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاي Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة في دفع الراتب الذي كان الأحرار يدفعونه له لكوننجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع في الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) »
وغطت شخصيته على مكانة أديسون في الأندية ، وكان في كل ليلة تقريبا
يتناول المشاء مع العشاء . ولم يكن يطبق من أحدم أية صمة من صمات
التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى
أجعل اللوردات يأتون إلى ٠٠٠ كان مفروضا أن أتناول المشاء في قصر
أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها في
عربتها ، ولكنها أرسلت في طلبنا لحسب ، ولذلك أرسلت إليها
اعتذارا (١١١) » .

وفي السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) في إنجلترا كتب سويغت
الرسائل المعجبية التي نشرت فيما بين ١٧٦٦ — ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات
إلى ستيللا » . إنه كان في حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه في المشاء لدى
الأدواق والدوقات ، وفي انتصاراته السياسية . أضف إلى ذلك أنه أحب
للرأة الصابرة ، التي ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى
يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين في اليوم
الواحد ، وأظهر اهتمامه وتملقه بكل ما يمينها ، اللهم إلا الزواج . وما كان
ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل المستبد للتغطرس ، وهذا للزاح
الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغربية ، والنسكات والتوريات ، والحديث
للصبياني ، مما صبه سويغت في رسائله التي لم يتوقع نشرها . أنها وسائل
زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم
إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج في رسالته للثورخة ٢٣ مايو
١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدي حتى يقضى
الله أمراً كان مفعولا ، وأن تنق بأن سمادتك هي غاية ما أصبو وأسمى
إليه في كل ما أعمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه في هذه الرسالة يطلق عليها
« الطفلة للزعجة ، الساذجة الفتاة للمغناج ، البنى ، للرأة القذرة ، السكبة
المحبوبة » ، وغير ذلك من الألقاب التدليل ولللاطفة . وانا لنلنس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير في مكتبه . وحلت بينه وبين العفوع رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا في انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنني أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفوع عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضى . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان طابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقا أن الرجل قد ضاحمها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعينى في هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بنى (١١٣) ؟ » .

وقد تعيننا هلل سويقت الجسيمة على فهم السر في رداة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يمانى من دوار فى الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصرع . وانصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس فى لمة (الشعر الذى يجاور شحمة الأذن) سويقت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه فى ١٧١٧ قال للشاعر ادوار بنج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت فى القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافياً ليتشكك فى قيمة الحياة ، وليرتاب قطعاً فى وجه الحكمة فى الزواج . ومن الجائز أنه كان حينئذ ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة للشئ اتقاء لزال جسمه ، فشى مرة من فاربام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح فى شوارع المدن وفى الناس . فاستطاع أن ينيء ، بمجرد الشم ، من صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشري أصابه النتن (١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنده ينحصر إلى
حد ما في :

« أنها لا يخرج من جسمها النقي هبات كريهة الرائحة تتير الاشمزاز ،
لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتسبب منها
العرق البغيض (١١٦) » .

أنه يصف « فادة جميلة في طريقها إلى القراش » ، ونفس المرأة
حين تفيق .

« إن من يرى كورينا في الصباح يتقياً ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .
إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوماً تجلس القرفصاء لتتبول ، والك أن تقسم
بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوماً بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت
في شوارع المدينة في الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفي حلبة الرقص في
القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها (١١٧) » .

وكان سويقت نفسه نظيفاً إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات
هذا السكاهن الأنجليكاني تعد من أغض ما كتب في الأدب الانجليزي .
أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه في وجه زمانه . ولم يبذل أي جهد
في إرضاء الناس ، ولكنه بذل كل الجهد في أن يسيطر ويتحكم ، لأن
السيطرة خففت من شعوره الخفي بعدم الثقة في نفسه . وقال أنه يكره
(أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره (١١٨) ، على أن هذا لم يصدق
على حبه هارلي . وكان غضوباً عند الشدة ، متغطرساً فقط وقت الرخاء
والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلي
بخمسين جنيهاً أجزاً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له
ما أراد ، فسكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلي ثانية (١١٩) » .
وكان يكره الرصميات ويحترق النفاق . وبداله أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المداء بمثله صراحة، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضيقه ، لأن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا بكل ولا يمل رأيتك أنت في حياتك . . إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل جبي الأفراد ، إنني أكره طائفة رجال القانون ، ولكنني أحب مستشاراً بعينه أو قاضياً بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتى) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وغيرهم ، ولكنني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذى يسمى إنساناً ، ولو أئى من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) . »

عند هذا الحد يبدو أن سويغت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبتهما إلى أن فارقتا الحياة . وأقام فى هذه السنوات فى لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانو مراى ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول المشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » فى حبه وكانت آنذاك فى الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو فى الثالثة والأربعين ، وأفصح له عن حبه . لحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا طابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجاب ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه فى كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني فى المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته مائلا أمامها؟ فرق قلبه ولات قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظلة « ديكابوس » أى الكاهن الكبير .

ذلك أنه في أبريل ١٧١٣ عينته للسلطة كارهة رئيسا لكاتدرائية سان باتريك في دبلن . وسافر إلى هناك في يوبيه ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كتابة وكنداً وإستياء (١٢١) وفي أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك في كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومذ فقد السلطان السيامي بعودة الأحرار الذين كان قد هاجمهم ، إلى الحكم في ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعا إلى أيرلنده الكريهة ، وإلى كاتدرائيته . ولم يكن محبوبا في دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لثقله الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به في الشوارع ، ورجوه بقاذورات البالوعات (١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر رده في قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

« يستقبل هذا المعبود اليوم رئيسا ذامنا هب وشهرة غير عادية استخدمها جميعا في الصلاة وفي الدنس ، خدمة للرب والشيطان كليهما ... وهو مكان حصل عليه بالدهاء والتصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح يروى الزمن أسقفا ، لو أنه آمن بالله (١٢٣) » :

وصمد سويقت للمحنة في شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه في برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلاث دخله . وفي أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ما خفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفي ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درايبية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بمملة نحاسية . واحتسك الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما اكتشفوا أن درايبية لم يكن إلا سويقت ، كاد الكاهن المكتتب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سوينف أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان في مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندي بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن في ١٧١٤ ماتت مسز فانو سراي ، وإنتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التي تركها لها والدها في سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاندرائية ، استأجرت مسكنا في زقاق تيرنستيل في دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سوينف ترحوه أن يزورها ، وإلا ماتت كدأ . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً . ولما ختمت زيارته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتها بآ . وقالت له في إحداها أنها ولدت بهذه « العواطف الجارفة » التي تنتهى كلها إلى شىء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . « فلو أنى غيبورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبده » (١٢٤) .

وربما فسكر سوينف فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦ (١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتهان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سوينف زيارته لفانيسا ، لا متازلا ، ولا وحشاً بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإلتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شىء ، وأنه سيكون لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاندرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سوينف الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه . وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخذلها . واجتمعت خيبه الرباء عندها إلى نزعها جامحه في إفناء ما بقي لها من أسباب الصحة والحياة ، وقضت نحبها في بحر شهرين من هذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهي في الرابعه والثلاثين . وتأثرت لنفسها في وصيتها . فألفت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويغت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لوروت مارشال والفيلسوف جورج بيركلي ، وأمرتها أن ينشرا دون تعليق رسائل سويغت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » . وهرب سويغت في « رحلة إلى الجنوب » في أيرلنده ، ولم يظهر في الكاتدرائيه إلا بعد مضي أربعة شهور على وفاة فانيسا .

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقصى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلي فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب (١٢٦) » . وانتهى سويغت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ، ورضى بمائتي جنيه ثمناله ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب في توبكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه . وهكذا استقبلت إنجلترا في أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة في العالم » بقلم لمويل جليلفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة في سرد الأحداث . وإعتبره كثير من القراء تاريخاً ، ولو أن أسقفاً أيرلندياً (كما يقول سويغت) ذهب إلى أنه ملوه بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض المهالقه Brobdingnag ، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه في الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا في جليلفر روحاً حترأيدة . من التسامي . وكان الذي يميز بين الأحزاب السياميه لديهم هو

الكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرزق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول المعالقة ستين قدماً ، وقد هبأوا جليليفر مشهداً آخر جديداً من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتاً للنمل . ومن وصف جليليفر لأصاليب الحياة ، خاص للملك إلى أن « كل مواطنيكم أخبر جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض (١٢٧) » . وكانت صدور خادات المعالقة ، وهي صدور ضخمة ، تنفر جليليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية في الجمال) .

وتضعف القصة في رحلة جليليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى « لابوتا » وهي جزيرة ساجحة في الهواء يقطنها ويمكها رجال العلم وللمثقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فان التفاصيل التي جاءت في أما كن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (في المرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشيء ، من ذلك أ كياس الهواء الصغيرة التي يسد بها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميق التفكير ليفيقوا من شرود الدهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأ كاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقداً هزلياً لقصة بيكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية للملكية في لندن . ولم يكن سويقت يثق في جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه في الكون) « إن الأنظمة الجديدة في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطاً جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريفنا بكتاب للبادي الرياضية ١٦٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن (١٢٨) » .

ثم ينتقل جليليفر إلى أرض « اللجناجين Luggnaggians » الذين

لا يحسبون على أ كابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمعتبرة نهاية الحياة فى بلام ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم ان يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدي غيرهم ، مكتسبين طابئين ثراريين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصدافة ، لا يستجيبون لأية طائفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ٠٠٠ وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذسروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لا يأمون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفزع منظر مخز ميث للشهوات رأيت فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة (١٢٩) . »

وفى القسم الرابع نبذ سويقت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للإنسانية . فان أرض « الهويمن » يحكها جياذ نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحدى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقرء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أفذار كريهو الرائحة ، جشعون تخمورون ، غير متعلقين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحطين المنحطين (هكذا كتب سويقت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ٠٠٠ وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلدق قدمى سيده ٠٠٠ ويأتى بنفسه الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة ؟) ٠٠٠ وكان يبقى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه (١٣٠) . »

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متمقلون ، كانوا سفهاء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعدت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جليليقر عن الحروب في أوروبا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماها بالخلاطات التي أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزاً أو يكون الخبز جسداً في القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دماً أم نبيذاً (١٣١) ، وكانوا يقاطعون جليليقر حين يفاخر بالمدد الكبير عن البشر الذي يمكن نسفه بالآلات المعجبية التي اخترعها قومه .

وعندما يعود جليليقر أدراجه إلى أوروبا ، نراه لا يسكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو في نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتني زوجتي وأسرتي بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا بما أتى . ولكن ينبغى على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبهضاء والاستياء والازدراء ٠٠٠ وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني ، من أجل ذلك رحمت في اغمأة لما يقرب من ساعة ، لولا أنني معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأهوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي ، حيث كانت رائحتهم لا تحتمل ٠٠٠ وأول مال أنفقته كان في شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندي بدمهما ، لأن الرائحة التي تنبث منه في الاسطبل كانت ترد إلى روعي (١٣٢) » .

وفاق نجاح « جليليقر » كل توقعات اللؤاف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة في غير أطناب ، وبالتفاصيل العريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقدم الحبيج » . ولا ريب أن سوفت يدين ببعض الفصل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسن كروزو » ، وربما يشهد من ١٩ - قصة المنارة

الفضل لكتاب سيرانودي بجرارك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر ». أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة في الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فإن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أزدل العمر ، غفرت لسويقت هجماتاه على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويقت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاي أنها « في نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشيء آخر » (١٣٣) .

وتكدر انتصار سويقت بنشر قصيدة كادينوس وفايسا ، فان منفذى وصية هستر فاهو سراي أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت في طبعات مستقلة في لندن ودبلن وادبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التي كانت قد وجهت يوماً إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يرض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويقت إلى ايرلنده لميادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرطان ما ترامت إليه الأبناء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليمات عاجلة إلى مساعديه في الكاتدرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة في مقر رئاسة الكاتدرائية (١٣٤) ، وعاد ادراجيه إلى دبلن ، ومرة أخرى أثبتت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها طارقت الحياة في ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهي في السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويقت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبمدها أقام في دبلن « مثل فأر مسموم في جحر » (١٣٥) ، كما كتب إلى بولنجبروك . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتيا على مزر دنجلي ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان في محنة شبابه ، وكان في ظاهره رجلاً قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً بفقر الشعب الايرلندي ، وصنع لكثرة عدد للتسولين من الأطفال في شوارع دبلن ، وفي ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة وطلدماً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى لدم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكيد ٠٠٠٠ أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاماً شهيماً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهراً بالغلى البطيء أو مشوياً أو مجمداً أو مسلوقاً ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروماً محمراً ، أو يخفنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فأنى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين اللسان والعشرين ألف طفل الموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى للسكاة والتراءى فى طول للملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلئ أجسامهم ويكونوا مماثلاً زدان بهم للوائد الفضة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأميرة تتناول غذاءها وحدها فإن الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو للملح لكان طيب اللذاق ٠٠٠

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجنة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة لسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأيقين ٠٠٠٠

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من اللسنيين أو للرضى أو للمعمدين وللشوهين ، ورضبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل الحزن ، ولكنى لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن للمعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة للمتوقعة بداهة ٠٠

وأظن أن مزايى الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ٠٠٠

وأولى للزاياء ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للربون الأساسيون للأمم ، قدر مائة أضعافنا وأخطرم ٠٠٠ وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكاف الواحد أقل من عشر شلنات في العام ، فهذا الاقتراح سيتوفر الأمة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذي يقدم إلى مؤاد ذوى الثراء والوجاهة ٠٠٠٠ الذين يتعاملون بالذوق الرفيع « ٠٠

إن نتاج يرع سويقت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المسكنة في إيرلنده (كان يسره أن ينصني كثيراً ليدقق النظر في عقله) اعتاد أن يقول لي أن عقلي مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشيء (١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هذا ، والذي تركته الأخطاء الصارخة في بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بأسنة حداد من الهجاء ، ألا يعنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ « ، « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يكن يفتقر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذي يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لتسوية الحياة على سويقت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخله وجشمه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يرضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيد على أصدقائه (١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءاً ، فما كان يدري في أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجمعه يترنج ويتلوى من الألم في هيكله أو في الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضمف بصره وترك القراءة .
ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحسنة طبيعه
واكتشابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت في الموت ،
ولسكنه الآن لا يغيب عن ذهني أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل
بيوم ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب في
استعادة شبابه (١٤٠) » . وفي أعوامه الأخيرة كان يودع زأريه دوماً بقوله
« سمعتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه في ١٧٣٨ . وفي ١٧٤١ عين بعض
الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أى أذى في نوبة
من نوبات العنف والجنون التي تصيبه . وفي ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من
التهاب في عينه اليسرى التي تورمت حتى صارت في حجم البيضة . وأحاط به
خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين قف عينه بيده . وقضى عاماً لا ينطق
ببنت شفة . وأذت محنته بالإنتهاء في ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة
بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثني عشر ألف جنيه لبناء
مستشفى للأمراض العقلية . وورى التراب في كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه
عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يمود السخط المرير يمزق قلبه » .

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ - ١٦٦٠

- ٠ ١ - الثورة الإشتراكية .
- ١٠ ٢ - ثورة أيرلندة .
- ١٣ ٣ - ثورة اسكتلندة .
- ١٦ ٤ - أوليقر حاكماً مطلقاً .
- ٢٣ ٥ - ذروة البيوريتانية .
- ٢٧ ٦ - الكويمكرز .
- ٣٣ ٧ - الموت والضرائب .
- ٣٧ ٨ - طريق العودة : ١٦٥٨ - ١٦٦٠ .
- ٤١ ٩ - ويعود الملك ١٦٦٠ .

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤

- ٤٥ ١ - جون بنيان ١٦٢٨ - ١٦٨٨ .
- ٥٣ ٢ - الشاعر الغاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠ .
- ٦٠ ٣ - المصلح ١٦٤٠ - ١٦٤٢ .
- ٦٧ ٤ - زواج وطلاق ١٦٤٣ - ١٦٤٨ .
- ٧١ ٥ - حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩ .
- ٧٥ ٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩ .
- ٨٦ ٧ - الشاعر المجوز ١٦٦٠ - ١٦٦٧ .
- ٩٤ ٨ - السنوات الأخيرة ١٦٦٧ - ١٦٧٤ .

الفصل التاسع عودة للسكبه ١٦٦٠ - ١٦٨٥

- ١٠١ ٩ - الملك السعيد .

(ب)

- ١١٢ — ٢ — مرسل الدين .
١٢٣ — ٣ — الإقتصاد الإنجليزى ١٦٦٠ - ١٧٠٢
١٣٣ — ٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢ .
١٤٢ — ٥ — الأخلاق .
١٥٠ — ٦ — العادات .
١٥٦ — ٧ — الدين والسياسة .
١٦١ — ٨ — المؤامرة البابوية .
١٦٨ — ٩ — خاتمة الملهاة .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

- ١٧٥ — ١ — الملك الكاثوليكي ١٦٨٥ - ١٦٨٨ .
١٨٦ — ٢ — الاطاحه بالعرش والملك فى اللهد .
١٩٣ — ٣ — إنجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٧٩ - ١٧٠٢ .
٢٠٣ — ٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن - ١٧٠٢ - ١٧١٤ .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوفيت ١٦٦٠ - ١٧١٤

- ٢١٢ — ١ — صحافه حرة .
٢١٥ — ٢ — المسرحيه فى فترة عودة الملكيه .
٢٢٩ — ٣ — جون دريدن - ١٦٣١ - ١٧٠٠
٢٣٩ — ٤ — فى ثبت واحد .
٢٤٤ — ٥ — إيفلين وبييز .
٢٥٠ — ٦ — دانيال ديفو ١٦٥٩ - ١٧٣١
٢٥٥ — ٧ — ستيل وأديسون .
٢٦٨ — ٨ — جونatan سوفيت .